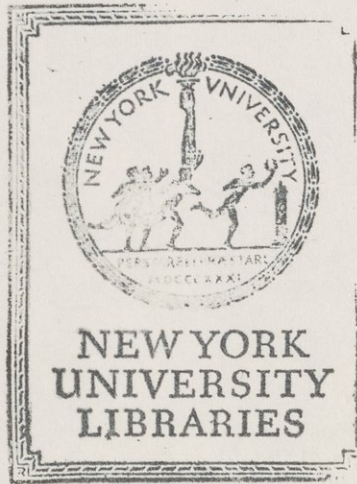


BOBST LIBRARY

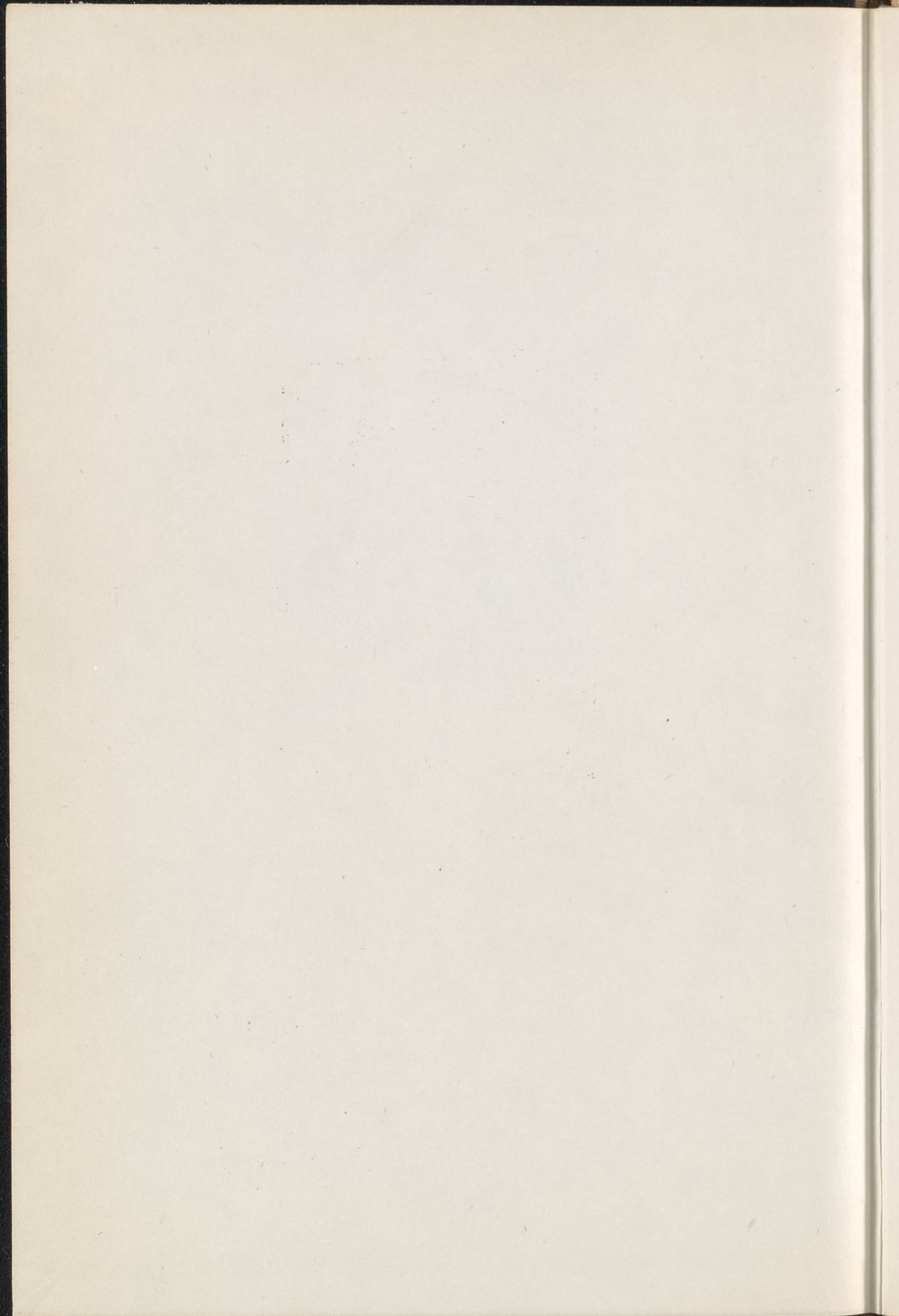


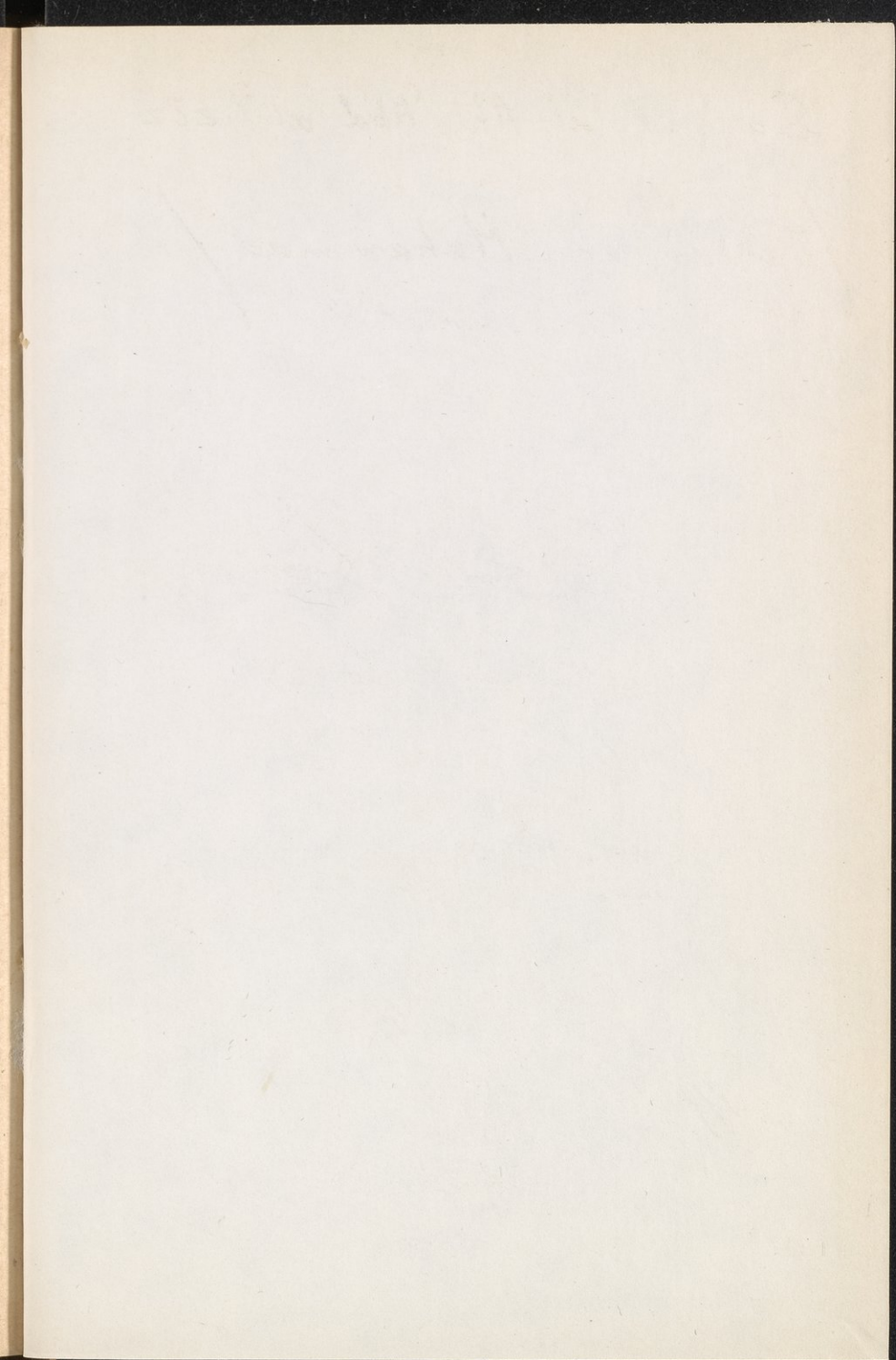
3 1142 02807 2364



NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY





T
Sayyid al-Ahl, 'Abd al-'Azīz

(Ja'far ibn Muhammad)
عبد العزيز سيّد أهل

جعفر بن محمد

الإمام الصادق عليه السلام

front

S

ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد!
أبو حنيفة النعمان

♡

دارالشرق الجديد

بيروت

Near East

BP

80

J3

S3

c-1

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى ، ايلول ١٩٥٤

تقديم

ليس يراد من هذا الكتاب أن يجمع للناس أخبار الصادق التي رويت عنه ، فهي أبعد من أن تُجمع ، وأكثر بعداً من أن تجتمع : أما بعدها عن الجمع ففي كل قطر منها أخبار ، وعند كل قوم وعصر منها آثار ، ولن تُجمع إلا بسياحة ذات مشقة وزمن ورحلة الى كل أثر . واما بعدها عن ان تجتمع فلوفرة ما بينها من تضارب واختلاف ، ولغزارة ما فيها من صحاح وكذاب .

وليس يراد من هذا الكتاب أن يسير في ظل طائفة ليخرج الأمور كما تهوى ، أو في خارج ظلها ليخرجها كما لا تهوى ، ولكنه أريد ان يكون كتاباً يخلص الى جواد اخبار الصادق ، ويقصد منها الى ما يوافق النفوس ويرضي الآراء ، نفوس المسلمين وآراءهم ، وبينهم ما لو شاءوا الاجتماع عنده والاتفاق عليه لم تضر بهم الفرقة ولم يمزقهم التشتيت .

وأعود فأطلب الى القراء - منذ هذا التقديم - ألا أسأل عن
عن أشياء لم أخض فيها ، وأشياء جاورتها ثم زلت عنها وهجرتها
وشيكا ، وذلك لأنني لم أستطع في الاولى أن أهتدي الى العلة التي
تطمئن وتريح ، ولم أستطع في الثانية ان أجد طريقاً أتقصى في
نهايته علماً . وحسب القراء ما جئت به ، فان لم يكتفوا فهو غاية
جهدي ونهاية ظني .

وأنا لا أنكر ان هذا الخذر وهذه المباعدة انما كانا مما أصاب
نفسي من قلق وحزن بسبب كثير مما ألصقه الرواة بالامام الصادق
وأهل شيعته - من أهل شيعته وغيرهم - وقد أفرط هؤلاء وهؤلاء
في الدعوة للفرقة والعمل لها قصداً او عن غير قصد ، وقد كانت لهم
في حياة الصادق وسيرته ما يكفي أن يكون مجداً وعظمة وردعاً .
ولكنهم لم ينتهوا ، وخلفوا لنا - وما زالوا يخلفون - ما يسود وجه
كل نهار ، وكان أكبر الكارثة أن كثيراً منهم يفعل ما يفعله
ويقص ما يقصه بدعوى تحقيق العلم وخدمة الحق ، والعلم من دعواهم
صارخ ، والحق من عطفهم برىء .

وفي حياه الصادق - حينما تُعرف خالصة مبرأة - أمور نواضع
وأضواء لوامع ، تزيد في فخر هذه الامة التي لم تتعطل مفاخرها ،

وتفتح سبلاً للهداية التي لم تعلق مفاتها . وما اظن الصادق والأئمة
من أهل البيت - حينما تعرف حياته وحياتهم كذلك - : الا كائنة
من الدعوات التي تجمع هذه الأمة المجتمعة على ربها وكتابها ونبينا
لم تتفرق قط ولن تتفرق ابداً .

ويخيّل اليّ - وانا أكتب في جوّ من هذا الشعور - اننا
سنجتمع - لا محالة - في جيل آت قريباً لا يعرف خلافاً او لا يأبه
له ، كما اجتمع عليّ وابو بكر في صحبة رسول الله ونصرة دينه من
بعده ، ثم امتزجا في أبنائهما حتى كان عند جعفر بن محمد أتمّ لقاء
بين الدّمويّن وأوّل الثمرات من الشجرتين .

ولمّ لا نجتمع او نرسل وراء الأمل ظنوناً هواتف ! والناس في
آفاق الأرض يلمّون أنفسهم في جماعات ، وينتظمون في مبادئ
ومذاهب ، ومع أنّ معظمها من صناعة المادة ولعة الدنيا فانهم
يرون فيها القوة ويظنون فيها العزة . والاسلام أجدر أن يلمّ أهله
ويجمع شمله . والشمل لا بدّ به مجتمع والأهل لا بدّ به ملمومون ،
ولمّ لا نجتمع أو نرسل وراء الأمل دعاء حاراً أو ظنوناً هواتف !



وان على الكتّاب لواجباً للمسلمين وهم يكتبون ، يحملونه
أنفسهم ويلزمونه أقلامهم : ذلك انهم يسحون قلوب الناس بالرضا

ما استطاعوا ، و يرسلون بين ضلوعهم برَدَ المحبة ما اقتدروا ،
و يفعلون ذلك دائبين لا يفزعهم غضب ولا تخيفهم مظنة ، وهكذا
أردت أن أحمل عبئي فصرخت بجعفر بن محمد في آذان الناس
لتسكب سيرته في قلوبهم المحبة وترسل في ضلوعهم برَدَ الود
وهداة الرضا .

وجعفر بن محمد - غير أن كان إماماً - مفخرة من مفاخر
المسلمين ، لم تذهب قط ، وإنما بقي منها في كل غدٍ قادم - حتى
القيامة - صوتٌ صارخٌ من حروفها يعلم الزهاد زهداً و يكسب
العلماء علماً ، يهدى المضطرب ويشجع المقتحم ، يهدى الظلم ويبيني
للعادلة ، وهو ينادي المسلمين جميعاً أن هلموا واجتمعوا ، وان قوموا
لم يختلفوا في ربهم وفي كتابهم وفي نبيهم لمجموعون - مهما اختلفوا -
في يوم قريب .

وما بالمسلمين اذا اختلفوا في الفقه والرأي ! فان ذلك كان هبة
الحرية التي منحها الاسلام العقول ، فجرت في مناهج وسلكت
سبلا ، واختلف الرأي لا يفسد ود الناس متى كان في حياطة
العصمة من الفساد والبعد من الضلال .

ذلك قولي ، وبه أردت وجه الله ، والله على ما أقول شهيد .

عبد العزيز مير الامل

مودة الكرام

مكارم خصمين

لما رفرقت ألوية النصر على علي بن أبي طالب وباد الناس من
حول الجمل الانكسار^١ - أبادتهم حدائد بني هاشم - نادى منادي
علي في القوم: ألا لا يُجْهِزَ علي جريش، ولا يُتْبَع موكِّ،
ولا يُطعن في وجه مدبر، ولا يُقتل أسير، ومن ألقى السلاح فهو
آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن^٢

ثم مضى علي - كرم الله وجهه - يتصفح وجوه القتلى، وينفض
التراب بيده عن وجوه أصحابه الذين حاربوه، وعن وجوه
ابنائهم^٣، ويرثي لهم فزعاً متمللاً، ويتمنى - صارخاً بأمنيته

(١) الذي وصف جل عائشة بالانكسار هو أبو العلاء المعري: قال في قصيدة
الجبلي برسالة الفقران:

والجمل الأنكسار شاهدته بس نتيح الناقة العنتريس

(٢) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ١٥٩ - الحراج لأبي يوسف ص ٢١٥

(٣) شذرات الذهب ج ١ ص ٤٣

صادقاً - أن لم يكن كل ذلك الذي جرى أو أقله أو شيء منه ،
 ويمضي باكياً مشفقاً يقول : شفيتُ نفسي وجدعت أنفي !
 حتى إذا انتهى الوصي إلى أم المؤمنين عائشة ، وقف بها جليلاً
 مهيباً - لم تطعه النصره ولم يبطره الظفر - يقول لها : ايها يا حميراء !
 ألم تنهي عن هذا المسير ؟ فقالت عائشة : يا ابن أبي طالب : قدرت
 فأسجح^٤ . ولم يرم علي من مكانه ولم يتحول ، فقال لها :
 غفر الله لك يا أمه ! فقالت ، ولك ، ما أردتُ الا الاصلاح ! فقال
 امير المؤمنين : اخرجني الى المدينة ، وارجمي الى بيتك الذي أمرك
 رسول الله أن تقرّي فيه ، فقالت عائشة ولم تتردد : اني أفعل^٥

وأمر علي بن ابي طالب ان يُسارَ بأَم المؤمنين الى بيتها
 بالمدينة ، في كوكبة من جند النساء ، لم يُسيّر مثلها في الاسلام
 ولا العرب من قبل ، في اربعين فتاة او سبعين ، من ذوات الفضل
 والشرف ، من بنات عبد القيس^٦ قد لبسن ملابس الجنـد
 من الرجال ، وأمرهن أمير المؤمنين أن يمضين ثم يعدن اذا وافين
 بعائشة المدينة واستقرت في بيتها كما أمرها رسول الله .

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٩

(٥) اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٠ — شذرات الذهب ج ١ ص ٤٢

(٦) شذرات الذهب ج ١ ص ٤٢ — اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٠

وكان علي - كرم الله وجهه - قد قال لمحمد بن أبي بكر
 - وكان مع علي في قتال عائشة - : تقدم الى أختك فانظر هل
 وصل الى أختك شيء؟ فعاد اليه يقول : أصاب ساعدها خدش
 سهم دخل بين صفائح الحديد ، فقال علي : سر معها حتى توصلها
 المدينة في كوكبتها وعجل اللحوق بي الى الكوفة . فقال محمد :
 أعفني يا امير المؤمنين ، فقال علي : لا أعفك ، وما لك بد^٧
 وُجِهَزَتْ عائشة ، وأقبلت بنات عبد القيس في ثياب الجند
 يحطنها ويخدمنها ، وتهياً لمحمد بن أبي بكر ليسير دليلاً لهن^٨ ، فلما تم
 كل ذلك أقبل علي بن ابي طالب امير المؤمنين واحتشد حوله أبناؤه
 من فاطمة الزهراء ومن غيرها يودعون جميعاً ام المؤمنين^٨ ،
 وكان علي واولاده فيما فعلوا أجل من المهابة وأهيب من الجلال ،
 ولم تَبْدُ منهم بادية شماتة ، ولم يفتر لهم ثغر بزهوة انتصار .

ووقع في نفس عائشة الحزن ، لا لأنها لم تنتصر ، ولكن لأنها
 مضت في الغلطة حتى استفحلت ، وخاضت في الفتنة حتى قَتَلَتْ
 - وهي الذكية الصديقة - وحتى لو لم تكن على ذكاء فان رسول الله
 أنبأها ، وكانت الشبهة كفييلة بردّها عما أقدمت عليه ، ولكنها

(٧) الاخبار الطوال ص ١٤٣

(٨) شذرات الذهب ج ١ ص ٤٢

غَلِبَتْ ، فَرَّ القدر المكتوب على قنطرة من الشك والتزدد ،
لأنه أراد أن ينفذ كما يريد .

ومن ثمَّ لَزِمَتْ يَبْتَهَا الذي امرها رسول الله أن تقرَّ فيه .
وظالما عاودها الندم فبكت ، ثم ما زال الحزن ينمو معها كلما نمت
حتى طغى وصرخ ، وعدَّت عائشة نفسها من الذين كانوا لانفسهم
من الظالمين .

قال عقبه بن صهْبَانَ : سألت عائشة عن قول الله : « فمنهم
ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » فقالت لي :
يا بني ، كل هؤلاء في الجنة ، فأما السابق بالخيرات فمن مضى على
عهد رسول الله يشهد له رسول الله بالخيرة والرزق ، وأما المقتصد
فمن تبع أثره من اصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي
ومثلك . قال عقبه : فجعلت نفسها معنا ^٩

وظلت عائشة كذلك ، حتى اذا وافاها الأجل سألوها أن تدفن
مع رسول الله وصاحبيه فامتنعت وأوصت أن تدفن مع صواحباتها
بالبقيع ، فقد أحدثت بعد رسول الله حدثاً ، ولقد جاءها ابن عباس
يهديء روعها عند الموت ، وتكلم فأكثر ، فقالت له : دعني منك

(٩) طريق الهجرة ص ٢٣٧

يا ابن عباس، فالذي نفسي بيده لو ددتُ اني كنتُ نسيامسياً ١٠
 ويألهم من قوم! كلهم كالحلقة المفرغة والسبيكة المسبوكة صياغة
 وإحكاماً، فعلي لم يطغه الظفر ولم يُنسه أدب الانتصار، وعائشة
 لم تنسها الهزيمة ندماً على الخطأ وحسرة على الغفلة، ومحمد بن ابي
 بكر أهمل الاخوة ليؤدي حقوق الطاعة لصاحب الامر، ثم رجع
 مخلصاً طائعاً ليؤدي حقوق الاخوة. ثم هؤلاء الصفوة الانجاب
 أولاد فاطمة الزهراء الذين وقفوا يودعون بنت أبي بكر وداعاً نبيلاً،
 ثم هذه عائشة التي يقال لها وهي تجود بنفسها: أتوصين ان تدفني
 مع رسول الله وصاحبيه؟ فتقول: ادفنوني مع اخوتي بالبقيع، فلقد
 أحدثت حدثاً بعد رسول الله!

أولاد أبي بكر

وكانت عائشة بنت ابي بكر من أم يقال لها « أم رومان »
 بنت الحارث، من بني فراس بن غنم بن كنانة، وأسلمت أم رومان
 قديماً قبل الهجرة وتزوجها الصديق ١١ فولدت له عائشة وعبدالرحمن
 وشب عبد الرحمن بن ابي بكر شقيق عائشة شجاعاً رامياً، قتل يوم
 اليامة سبعة من كبار المشركين ١٢. وأما محمد بن ابي بكر فكان

(١٠) صفة الصفوة ج ٢ ص ١٩

(١١) صفة الصفوة ج ٢ ص ٣٢

(١٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٣٩، ٢٥٩

من أسماء بنت عميس ، تزوجها جعفر بن ابي طالب ، فلما مات عنها
تزوجها أبو بكر ، ثم مات عنها ولم يزل محمد ابنها صغيراً ١٣
فتزوجها علي بن أبي طالب ، وضم اليها ابنها محمداً ، فكان
لعلي ربيباً .

وقاتل محمد بن ابي بكر مع علي يوم الجمل ، ثم ذهب محمد
والياً على مصر من قبل علي ، فلما غلب معاوية بن ابي سفيان على
البلدان قتل معاوية بن حديج الكندي محمد بن أبي بكر ، فوجد
علي بن ابي طالب على محمد وجداً عظيماً وقال : كان لي ربيباً ،
وكنت أعدّه لي ولداً ولأولادي أخاً ! وسمعت امه أسماء بنت عميس
بقتله فكظمت غيظها حتى شخبت ثديها دماً ١٤

ولم تنس عائشة نصيبها في المصيبة بأخيها محمد - وان كان قد
حاربها يوم الجمل - فضمت اليها اولاده ترعاهم وتحسن الوفاء الى
اخيها فيهم مع كراهة شقيقها عبد الرحمن لما فعلت ، وقد كان يودُّ
هو ان يقوم بكفالتهم دونها ، ولكنه استحيا منها فترك الامر لها .
قال القاسم بن محمد بن ابي بكر : لما قتل ابي محمد بن ابي بكر
بمصر جاء عمي عبد الرحمن بن ابي بكر فاحتماني انا واخنا لي من

(١٣) المعارف ص ٧٥

(١٤) تاريخ الخيس ج ٢ ص ٢٣٨ - يعقوبي ج ٢ ص ١٧٠

مصر ، فقدم بنا المدينة ، فبعثت الينا عائشة فاحتملتنا من منزل
عبد الرحمن اليها ، فما رأيتُ والدة قطّ ولا والدأُ أبرّ منها ، فلم نزل
في حجرها .

ثم بعثتُ الى عمي عبد الرحمن ، فلما دخل عليها تكلمت
فحمدت الله عز وجلّ واثنت عليه ، فما رأيتُ أبلغ منها ! ثم قالت :
يا اخي ، اني لم أزل اراك معرضاً عني منذ قبضتُ هذين البنيّين
منك ، ووالله ما قبضتهما تطوّلاً عليك ، ولا تهمة لك فيهما ، ولا
لشيء تكرهه ، ولكنك كنت رجلاً ذا نساء ، وكانا صبيّين لا
يكفيان من أمرهما شيئاً ، فخشيتُ أن يرى نساؤك منهما ما يتقدّرن
به من قبيح أمر الصبيان ، فكنتُ أطف لذلّك وأحقّ لولايته .
فقد قويا على أنفسهما وشبا وعرفا ما يأتيان ، فها هما هذان ، فضمهما
اليك ١٥ . فضمهما عبد الرحمن .

أولاد الفتيات

وكان محمد بن ابي بكر أحد الثلاثة الذين تزوجوا بينات
يزدجرد بن كسرى حين جيء بهن سبايا من حصون كابل ١٦
واراد عمر بن الخطاب بيعهن ، فلم ير علي بن ابي طالب ذلك وأشار

(١٥) الدر المنثور ص ٢٨٢

(١٦) زين العابدين ص ١٥

بالمغلاة في اثمانهن ، وأن يخترن الرجال ، ونزل عمر عند رأي صاحبه ،
فاختارت احداهن الحسين بن علي ، وكانت الثانية لعبد الله بن عمر ،
والثالثة لمحمد بن ابي بكر .

ثم قدر لهؤلاء الفتيات الكسرويات ان يلدن في قريش خير
اهل الارض في زمانهن عبادة وزهداً ، فولدت الاولى علي بن الحسين
زين العابدين ، وولدت الثانية سالم بن عبد الله بن عمر ، وولدت
الثالثة القاسم بن محمد . وجاء هؤلاء اخوة في الخؤولة كما كانوا اخوة
في العمومة ، من آباء اصدقاء تزري صداقاتهم بالاخوة مهما اشتدت
روابطها وتأصلت موارثها ، ومن امهات اخوات يربط بينهن
الدم بأقوى من رباط الصداقة وجوامع الآمال .

ومن قبلُ قضى الاسلام على عصبية الجنس ، فجاء هؤلاء
حجةً للاسلام على ما فعل ، فقد صار اولاد الفتيات في الطليعة من
زهاد المسلمين وعلمائهم ، وصارت أمنية كل فتى من قريش أن
يتزوج من فتاة ، وجاءت الاموية حيناً بمحاربة الفكرة وتغليب
العنصر ، ولكنها ما لبثت ان ارتدت عن حربها لما صليت به من
نيران الحجج والآيات .

من أبي بكر

وشب القاسم بن محمد ، فما أدرك أهل المدينة أحداً يكاد يفضل

عليه غير الخلدص من بني هاشم وبني عبد المطلب ، حتى ان عمر
ابن عبد العزيز كان يقول كما ذكره : لو كان لي من الامر شيء
لوليت القاسم بن محمد الخلافة ^{١٧} فقد كان ثقة كريماً لا يفتي الا
بما يعلم ، ويرى الجهل بالمرء خيراً له من ان يقول ما لا يعلم ، وما كان
يجيب الا فيما يظهر له من الاشياء ، وكثيراً ما استفته الناس فقل
لهم : لا أعلم ، لا أدري !

واستبحر القاسم بن محمد في علم الحديث ، وأسند عن ابيه وعن
جماعة كثيرة من اصحاب رسول الله : ابن عباس وأبي هريرة وأسلم
الفتية النبيل مولى عمر . وكان القاسم من الآخذين عن عائشة ،
وأحد الذين لا يكادون يتجاوزون قولها والتفقه بها ^{١٨} . ولم يتردد
القاسم لفضله ان يأخذ بعض الفتية عن طريق عثمان . ومن كمال
الفضل ان يذهب القاسم بن محمد وراء الرواية من هذا الطريق ، بينما
كان ابوه محمد ممن تعرضوا لعثمان . وقد رووا عن القاسم انه قال :
ان الفرافصة بن عمير الحنفي قال : ما اخذت سورة يوسف الا من
قراءة عثمان بن عفان اياها في الصبح ، من كثرة ما كان يرددها ^{١٩}

(١٧) صفة الصفوة ج ٢ ص ٤٩

(١٨) شذرات الذهب ج ١ ص ٦٢ — تيسير الوصول ج ٤ ص ٢٣

(١٩) حياة الحيوان ج ٢ ص ٢٠٧

وقد عمّر القاسم طويلاً وذهب بصره في آخر عمره ٢٠
ومات سنة ثمانٍ ومائة وهو يحجّ أو يعتمر ، مات بمكان يقال له
قديد ٢١ . ولم ينس القاسم نفسه وهو يموت ، فوضعها في مكانها
السامي من التواضع فقال لابنه - وكان معه - يا بني ، سنّ عليّ
التراب سنّاً ٢٢ ، وسوّ على قبوري ، والحق بأهلك ، وإياك ان
تقول : كان أبي وكان ! ٢٣

وكان قد ولد لعبد الرحمن بن ابي بكر شقيق عائشة - فيمن ولد
له - بنت سماها أسماء ، جاءته من فتاة امّ ولد ، فلما آن لابن عمها
القاسم ان يكبر وان يتزوج ، مال الى ابنة عمه اسماء فتزوجها ، فرزق
منها ابن وابنة هما عبد الرحمن وام فروة ٢٤ . وكذلك اجتمع
في اسماء والقاسم بيتان لابي بكر الصديق ، واشتد بهما الامتزاج بين
بيت أم رومان وبيت أسماء بنت عميس .

(٢٠) المعارف ص ٢٥٤

(٢١) قديد بالصغير اسم موضع بين مكة والمدينة وهو الى مكة اقرب -

معجم البلدان ج ٧ ص ٣٨

(٢٢) سنن التراب = وضعه وضعاً سهلاً .

(٢٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٠

(٢٤) المعارف ص ٩٤ - مقاتل الطالبين ص ١٥٩

من علي

واما زين العابدين علي بن الحسين فجاء سيد الناس في زمانه وغير زمانه ، وقد هال معاصريه جلال قدره وعظم شأنه ، فظنوه غاية ما يرتفع اليه بيت الحسين ، ولم يكونوا يظنون انه يلد من يضارعه في الفضل او يشابهه في النبل ، ولكن الله أخلف ظن الناس بابنه محمد .

تزوج علي زين العابدين من فاطمة بنت عمه الحسن بن علي ، فاجتمع منه ومن فاطمة بيتان لعلي ، واشتد في محمد بن علي الامتزاج بين السبطين الحسن والحسين . وما لبث محمد بن علي أن ظهر بالعلم والزهد والفضل والسؤدد ، ثم ما لبث ان تحول اليه الفضل كله فلم يظهر علي احد من ولد الحسن والحسين من علم الدين والسنن وعلم القرآن والسياسة وفنون الأدب والبلاغة ما ظهر من محمد بن علي^{٢٥} ثم تبقر محمد في العلم وتوسع فيه حتى سمي بالباقر ، وهو لقب لم يسبقه احد اليه .

وقيل ان محمداً الباقر ولد يوم الجمعة ثالث صفر سنة سبع وخمسين قبل مقتل جده الحسين بثلاث سنين^{٢٦} ثم شب في رعاية أبيه

(٢٥) الفصول المهمة ص ١٩٢

(٢٦) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٨٦

بالمدينة فتىً أسمر معتدل القامة ممتلئاً^{٢٧} وعالمًا زاهدًا جواداً . أما
 علماً فقد رأى العلم أغلى من العبادة قيمة وأجل قدراً ، ورأى العالم
 ينتفع الناس بعلمه أفضل من الف عابدين^{٢٨} . وأما زهداً فقد
 كان رأيه في الدنيا رأي جده علي : عمرٌ قصيرٌ وخطرٌ حقيرٌ . وأما
 جوداً فقد كان - مع كثرة عياله وتوسط حاله - يجود بما يسد الخلة
 وبما يغني من الفقر ، كان يجود بمئات الدراهم والوفها ، فاذا رأى
 المعروف مستوجباً الخروج من المال كله بذل المعروف ولو لم يبق
 عنده شيئاً^{٢٩}

وعاش الباقر في حياة أبيه زين العابدين ثلاثين سنة أو نحوها ،
 فلم يبق من فضل زين العابدين الا قبس منه الباقر وأشعل ضوءاً ،
 ثم عاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة أو نحواً منها ، ووفاه أجله
 سنة سبع عشرة ومائة^{٣٠} ومات وهو في السابعة والخمسين .

الوصي والصديق

وكما كان الاجداد محبة ووداً كان الآباء ثم الأحفاد ، وكان
 من تيار ذلك الود الذي لم ينقطع ان خطب محمد الباقر أم فروة بنت

(٢٧) الفصول المهمة ص ١٩٣

(٢٨) مطالب السؤل ص ٥١ - الفصول المهمة ص ١٩٥

(٢٩) الفصول المهمة ص ١٩٧

(٣٠) المعارف ص ٩٤

القاسم بن محمد واسمها قريبة او فاطمة ٣١. وأبواهما اولاد خالة. ومن الشرف الباذخ ان يتزوج أحفاد علي وابي بكر. ومن زيادة الفضل ان يتزوج امام من اهل البيت بفتاة ابوها ربيب عائشة الصديقة وابن أخيها الذي كان لعليّ أبي الأئمة ابناً وريبياً.

وحيث رجع نسب محمد الباقر الى جده علي بن ابي طالب مرتين : من طريق ابيه علي بن الحسين وامه فاطمة بنت الحسن - رجعت ام فروة لجدها ابي بكر مرتين : من طريق ابيها القاسم وابنة عمه اسماء بنت عبد الرحمن. ثم تزوج محمد الباقر بن زين العابدين بأم فروة بنت القاسم بن محمد فولدا جعفرأ.

هكذا كان . وهكذا قدر لفتى من سلالة فاطمة الزهراء وفتاة من سلالة ابي بكر الصديق - والتقدر لا يجري الا بخير - قدر لهما ان يلدوا فتى ليس له ولا للناس جميعاً - مهما احتالوا - ان يفصلوا اجزاء دمه فيقولوا : هذا من علي وهذا من ابي بكر ، لأن الفتى كله كان ميراثاً من الوصي والصديق . ولا فرق بينهما مهما فرّق الناس ، ولا حيلة مهما احتالوا . وهذا الفتى الذي ولد يجمع كل خصائص الخير وخصال الود في ميراث دمه هو جعفر بن محمد بن علي زين

(٣١) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٨٩

العابدين ابن الحسين السبط ابن علي الوصي ، وهو ابن ام فروة ٣٢
فاطمة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق .
ولقد رأى جعفر بن محمد في انتسابه لأبي بكر مفخرة له طالما
حدث عنها وبأهى بها ، فكان كثيراً ما يقول : ولدي الصديق
مرتين ، وانا ابن الصديق مرتين ٣٣

وحتى محمد الباقر ابو جعفر ولم يتزوج بكريه كان يحتفي بأبي بكر
ويذكر اسمه ، قالوا ان محمد بن علي تحدث ذات مرة عن ابي بكر
فقال : الصديق ، فقال له رجل ممن حضر مجلسه : وتقول الصديق؟
فقال محمد : الصديق الصديق ! انه صدق جدِّي رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، من لم يقل الصديق فلا صدق الله قوله دنيا ولا
آخرة ! ٣٤

ومن قبل الباقر ابوه زين العابدين فانه لم يخض فيما كان بين
صحابه رسول الله ، ولم يرض ان يثير الناس عنده ثورة الخلاف

(٣٢) كان لهم بالتكنية بأم فروة عناية ، فأخت ابي بكر كنيته به وهي
التي تزوجها الأشعث بن قيس ، وسميت به بنت القاسم بن محمد ثم سمي جعفر
الصديق بنته الوحيدة به .

(٣٣) نور الابصار ص ١٤٥ — اسعاف الراغبين ص ٢٢٧ — النجوم
الزاهرة ج ١ ص ٨ — تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٨٧ — غاية الاختصار ص
٦٢ — اعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٨٩
(٣٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ٦١

وطردهم من مجلسه ٣٥ . وقد ذكر الذهبي بإسناد عن محمد بن فضيل عن سالم بن ابي حفصة قال : سألت ابا جعفر محمد بن علي وابنه جعفرأ عن ابي بكر وعمر فقالا : يا سالم ، توليها و ابرأ من عدو هما فانهما كانا امامي هدى رضى الله عنهما . وقال جعفر : يا سالم ، أيسب الرجل جده ؟ ابو بكر جدي ... وروي عن زهير بن محمد مثل ما روي عن ابن ابي حفصة ٣٦

جعفر بن محمد

وولد جعفر بن محمد بالمدينة سنة ثمانين ٣٧ ، سنة سيل الجحاف ٣٨ او سنة ثلاث وثمانين . وفي راجح الظن انه ولد في بيت جده زين العابدين ، في الفناء الواسع ومبازل الجود والسخاء ، ومن الحتم انه رأى جده ، وحن له ان يتأثر به وبالحياة التي كان يحيها من العبادة والزهد والعلم والفضل والوفرة والجود ، وقد حان له ذلك لأن جده مات سنة سبع وتسعين ، فقد عاش جعفر في كنفه

(٣٥) زين العابدين ص ٨٤

(٣٦) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩ — صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٥

(٣٧) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٤ — وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٩١

(٣٨) الجحاف كغراب سيل يجرف كل شيء ويذهب به قال الطبري بعد

النعنة : جاء السيل حتى ذهب بالحجاج ببطن مكة وبلغ الركن وجاوزه ، ولقد كانت ترى الابل عليها المحمولة والنساء يمر الناس بهم وما لأحد فيهم حيلة : الطبري ج ٥ ص ١٣٨ .

ما بين عشرة اعوام واربعة عشر عاماً، وهن سن الغلام التي تنطبع فيها مشاهد الحياة التي يراها مؤثرة مدوية، ثم يُصدر عنها متى حان له ان يصدر ، حيث تتم له المواهب وتنمو الخصال .
 وشب جعفر آدم اللون معتدل القامة كأبيه محمد ^{٣٩} . ولكن اخباره تكاد تغيب في حياة أبيه ، وما كان ذلك الا للتقليد الشاق الذي طبع على اتباعه اهل البيت ، لولا ما قيل من انه كان يقول بالرأي مع ابيه احياناً .

أهل البيت

وان لأهل البيت لأدباً ينفردون به عن الناس : يوقر صغيرهم كبيرهم ، ويجل مفضولهم أفضلهم ، ويرحم كبيرهم صغيرهم بما لا شبيه له في البيوت الاخرى . اذا حكي من آدابهم شيء خيل لمن يسمع أو يقرأ أن التأدب في هذا البيت كان فرضاً ثقيلاً وحملًا فادحاً ، فانهم ليقولون إن الحسين ما كان يتحدث إذا ارتفع صوت أخيه الحسن بالكلام ، وإن محمد بن الحنفية لم يتكلم إذا تكلم الحسين ، وإن زينب بنت علي أمسكت عن المقالة عند يزيد بن معاوية حين همّ أخوها زين العابدين فأراد أن يتكلم ^{٤٠}
 وإن من أخبارهم في توقير صغيرهم كبيرهم لعجبا ! : قالوا :

(٣٩) الفصول المهمة ص ٢٠٥

(٤٠) زينب عقيلة بني هاشم ص ٨٩

أتى رجلٌ إلى الحسن بن علي يسأله ، فقال الحسن : إن المسألة لا
تصلح إلا في غرم فادح أو فقر مدقع أو حمالة منفضة ٤١ ، فقال
الرجل : ما جئت إلا في احداهن ، فأمر له الحسن بمائة دينار . ثم
مضى الرجل إلى الحسين فسأله فقال له مثل مقالة أخيه فردّ الرجل
بمثل ما كان ردّ ، فقال الحسين : كم أعطاك الحسن ؟ قال : مائة
دينار ، فنقصه الحسين دينارا ، قد كره أن يساوي أخاه ، فترك له
زيادة وفضلا . ثم أتى الرجل إلى عبدالله بن عمر فسأله ، فأعطاه
عبدالله سبعة دنانير ولم يسأله عن شيء ، فقال له الرجل : إني أتيت
إلى الحسن والحسين ، ثم اقتص كلامهما عليه وفعلهما به ، فقال
عبدالله بن عمر : ويحك ! وأنى تجعلني مثلها ؟ إنهما غرّا العلم
غرّا المال ٤٢

وكذلك رأى جعفرُ أباه محمداً بين يدي جده زين العابدين ،
ورأى أخوته بين يدي أبيه ، فلزم الأدب الذي اتخذه والعادة التي
تطبعوا بها ، وما زال الأمر يعظم في صدر جعفر حتى أخذ يغالي في
البر بوالديه ، وحتى رأى حدّة النظر اليه عقوقا ، واعتقد أن سكرات
الموت يخففها الله على من كان باراً بوالديه ، ورأى أفضل الأعمال
(٤١) الغرم الفادح الدين الثقيل ، والفقر المدقع الذي يسوء احتماله ،
والحمالة المنفضة كسحابة الدية يحملها قوم عن قوم لتجاوزها المقدار
(٤٢) عيون الاخبار ج ٣ ص ١٤٠ — وغر الشيء أي دفع له فيه دفعا .

برّ الوالدين ، وجعله أحد أمور ثلاثة هي أفضل الأعمال : أولها الصلاة لوقتها وثالثها الجهاد في سبيل الله ٤٣

وفرض جعفر بن محمد في صفات الشريف أن يقوم من مجلسه لأبيه ٤٤ . وكان جعفر يفعل مع كبار أهل بيته ما يجب عليه أن يفعله لأبيه : حدث عبد الله بن جرير قال : رأيت جعفر بن محمد يمسك لعمه زيد بن علي بالركاب ويسوي ثيابه على السرج ٤٥ وجعل جعفر إذا أقر بفضل واحد من أهله يذيع هذا الفضل في الناس : روى محمد بن سالم قال : قال لي جعفر بن محمد : يا محمد ، هل شهدت عمي زيدا ؟ قلت : نعم ، قال : فهل رأيت فينا مثله ؟ قلت : لا ، قال : ولا أظنك والله ترى فينا مثله ٤٦ - ومع اعتقاد جعفر بأن عمه زيدا لم تكن له إمامة - فقد قال حين بلغه خبر مقتله : رحم الله عمي زيدا ! لو تمّ له الأمر لوفى ٤٧ . وقد استطاع جعفر بمثل كلامه هذا أن يقضي على كل من تنكّر لعمه زيد .

•

(٤٣) محمد بن الحنفية ص ٨٠ ، ٩

(٤٤) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢

(٤٥) مقاتل الطالبين ص ١٢٩

(٤٦) الحور العين ص ١٨٨

(٤٧) غاية الاختصار ص ٧٩

وقد عاش جعفر في حياة أبيه الباقر نحواً من ثلاثين سنة ٤٨
فتطّبع بصفات أبيه زهداً وفضلاً ومحبة للعلم واشاراله على الزهد
والعبادة ، وتعلم منه ومن جدّه زين العابدين ان يطعم حتى لا يبقى
لعياله طعاما ، وان يكسو حتى لا تبقى لهم كسوة . وبذلك حدث
المهاج بن بسطام قال : كان جعفر بن محمد يطعم ويكسو حتى لا
يبقى لعِياله شيء من كسوة أو طعام ٤٩ .

وظالما رأى جعفر أباه محمدا يقوم في جوف الليل يضرع الى الله
قائلاً : امرتني فلم آتمر ، ونهيتني فلم ازجر ، فيها أنذا عبدك بين
يديك مقرّ لا يعتذر ٥٠ وظالما ضرب ابوه - بعد جدّه - امامه
امثلة للصبر على البلوى والرضا بما قدّر . وقد رأى الباقر بعض اهله
يشتكى مرضا ، فجزع عليه ، ثم اخبر بموته فسرّي عنه ، فقبل
له في ذلك ، فقال : ندعو الله فيما نحب ، فاذا وقع ما نكره لم نخالف
الله فيما احب ٥١ .

كل هذه الحياة التي عاشها جدّه وابوه قد طبّعته على اخلاقها ،
فنشأ جعفر صبورا راضيا جمّ التواضع ، ولم يأنف قط - مع ما وهبّه

(٤٨) المعارف ض ٩٤

(٤٩) صفة الصفة ج ٢ ص ٩٨

(٥٠) الفصول المهمة ص ١٩٤

(٥١) عيون الأخبار ج ٣ ص ٥٧

من وفرة - ان يجلس على الحصير^{٥٢} . وكانت كلمة « أنا » أكره
كلمة على سمع جعفر، ما قالها رجل الامتقته، وقد قال ذات مرة لرجل
من احدى القبائل : من سيد هذه القبيلة ؟ فقال الرجل : أنا ، فقال
جعفر : لو كنت سيدهم ما قلت أنا !^{٥٣} .

وصية الباقر

وخلف الباقر ستة اولاد كان جعفر افضلهم واكملهم
جميعاً .

وكان جعفر حين جاء اباه الموت رجلاً كامل السن ، ومع ذلك
فقد كان عليه ان يتلقى وصية ابيه ، لان الوصايا تقليد في اهل هذا
البيت ، وكل اب يوصي لابنه اذا كان اماما ، فلما عرف الباقر أنه
سيقبض دعا بابنه جعفر فأوصاه .

أوصاه بأشياء في تشييعه وشق قبره ، وكان ذلك بحضرة نفر من
قريش ، فيهم نافع مولى عبدالله بن عمر ، وقالوا ان الشهود لم يكونوا
في هذه الوصية - مع انحصارها في التشييع والدفن - الا ليعرف الملاء
ان الباقر اوصى من بعده لابنه جعفر على الملاء^{٥٤} .

واوصى الباقر ابنه جعفرأ باصحابه ، قال : لما حضرت ابي

(٥٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٦

(٥٣) الطقات الكبرى ج ١ ص ٣٢

(٥٤) اعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٠١

الوفاة قال: يا جعفر، اوصيك بأصحابي خيراً، قلت: جعلت فداك! والله
لأدعنهم والرجل يكون منهم في المصرف فلا يسأل أحداً ٥٥، قد
أوصاه بأصحابه كذلك، ليهديهم ويتم تعليمهم، ويغنيهم عن الناس.

السمع للعلماء

وان عند أهل البيت من العلم ما يكفي وما يغني، فقد أخذوا
عن آبائهم عن رسول الله، ولكن جعفر لم ير عليه بأساً - في حياة
أبيه - أن يجلس إلى الفقهاء والعلماء ويتنقل في مجالسهم ويأخذ
حديثهم، وقد اقتدى في ذلك بأهل بيته عامة وجده زين العابدين
خاصة، إذ كان زين العابدين يكثر من الجلوس إلى حلقة زيد بن
أسلم في مسجد رسول الله فرآه نافع بن جبير يفعل ذلك ويكثر منه
فقال له: العجب لك! أنت سيد الناس وأفضلهم وتذهب إلى
هذا العبد فتجلس معه؟ فقال له زين العابدين: يا نافع، إنه ينبغي
للعلم أن يذهب إليه حيث كان! ٥٦

وكان أكثر الناس حظاً بجلوس جعفر إليهم والسمع منهم عكرمة
أبو عبد الله وعطاء بن أبي رباح ثم عبد الله بن أبي رافع وعبد الرحمن

(٥٥) انظر ما وصي به الباقر عند وفاته بأعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني
ص ٨٢، ٩٩ ويرى صاحب أعيان الشيعة أن الحخير الذي يوصي به الباقر إنما
هو العلم

(٥٦) زين العابدين ص ٢١، ٢٣

ابن القاسم^{٥٧} وغيرهم .

عكرمة

وكان عكرمة أبو عبد الله مولى لعبد الله بن عباس ، وقد احسن ابن عباس الرعاية عليه لما رآه من ذكائه وفطنته فجعل في رجله الكبيل وجعل يعلمه القرآن والسنن حتى صار اليه علم ابن عباس ، وكان من اعلم الناس بالتفسير وكتاب الله .

وأدرك عكرمة مئتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منهم في المسجد الحرام ، وروى لهم ، وسمع من الحسن والحسين واكثر من الرواية عنهما ، ثم روى عن ابن عمر وابن عباس وابي سعيد وأبي هريرة وعائشة .

وقد تعالى عكرمة سمواً في خلقه ورفاهية في ادراكه فرأى الخلق الحسن أصل الاسلام وعليه تبنى كل مفاخره . وقد امتد به الأجل فبلغ الثمانين ، ولما مات سنة اربع ومائة هو وكثير عزة الشاعر الغزل في يوم واحد قالوا : مات اليوم أفاقه الناس وأشعر الناس !^{٥٨}

(٥٧) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٧٠

(٥٨) صفة الصفوة ج ٢ ص ٥٩

روي عن الزهري أنه قال : قدمتُ على عبد الملك بن مروان فقال : من أين قدمتَ يا زهري ؟ قلتُ : من مكة ، قال : فمنْ خلفتَ بها يسود اهلها ؟ قلت : عطاء بن ابي رباح ، قال عبد الملك : فمن العرب ام من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، قال : فيم سادهم ؟ قلت : بالديانة والرواية ، فقال عبد الملك : ان اهل الديانة والرواية ينبغي ان يسودوا الناس ^{٥٩}

وعطاء هذا كان مولياً لآل ابي ميسرة الفهري ، عبداً اسود حبشياً من ولد الجند ، وامه امرأة سوداء من اهل مكة تدعى « بركة » ، ولد في خلافة عثمان ونشأ بمكة وعلم الكتاب بها وسمع من كبار الصحابة ^{٦٠} ثم صار عطاء بفضل ما حصل من العلم من أشهر التابعين والمصنفين في تفسير القرآن ^{٦١} والعلم بمناسك الحج طوافا وعكوفاً وركوعاً وسجوداً ^{٦٢} وصارت حلقة الفتوى في المسجد الحرام لعطاء بعد ابن عباس ، وظل المسجد فراش عطاء عشرين سنة ، وحج عطاء سبعين مرة .

(٥٩) حياة الحيوان ج ٢ ص ٨٩

(٦٠) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧٣ - المعارف ص ١٩٦

(٦١) مقدمة مجمع البيان لأحمد رضا ج ١ ص ٧

(٦٢) معجم البلدان ج ١ ص ٢٠٤

وكان عطاء متواضعا زاهدا لم يُر عليه ثوب يساوي خمسة
 دراهم . يسمع الحديث من الرجل وهو اعلم به منه ثم يريه أنه لا
 يحسن منه شيئا ٦٣ . وكان مؤمناً بالقدر خيره وشره ، ولا يسب
 احداً من السلف ولا يرضى أن يسبهم أحد ، ولا يكفر احداً
 بذنوب . كان شريفاً فاضلاً مقتصداً ٦٤ وكان اذا سئل اطال الصمت
 فاذا تكلم اجاب على سداد ، وخيّل للسائل انه يؤيد او يُلهم .
 وعطاء بن ابي رباح كان من اهل العاهات ثم كف بصره ٦٥ ،
 ولكنه لم يكن يريد بالعلم شيئا يغني به نقصا او يسدّ خلّة ، ما
 كان يريد به غير وجه الله سبحانه ، وقد اجمع الناس جميعا على فضله
 وعلمه ، فشهد له ابن عمر ، وشهد له سليمان بن عبد الملك وابو جعفر
 المنصور .

قدم ابن عمر مكة فجمع له اهلها مسائل فسأله فيها ، فقال :
 اتجمعون لي يا اهل مكة المسائل وفيكم ابن ابي رباح ٦٦ ؟
 وجاء اليه سليمان بن عبد الملك امير المؤمنين الاموي هو وابناه
 فجلسوا اليه وهو يصلي ، فلما صلى انفتل اليهم محولا ظهره ، فما

(٦٣) صفة الصفوة ج ٢ ص ١١٩، ١٢١

(٦٤) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٣١

(٦٥) المعارف ص ٢٥٠

(٦٦) صفة الصفوة ج ٢ ص ١٢٠

زالوا يسألونه - وهم وراءه - عن مناسك الحج . ثم قال سليمان
لابنيه : قوما ، فقاما ، فلما ابتعدا عنه قال لهما : يا بني ، لا تنيا في
طلب العلم ، فإني لا انسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود ٦٧ .

وعن معاوية بن حديج قال : سألتني ابو جعفر المنصور : ما
فعل حسان بن عتاهية ؟ قلت : قتله شعبة ، فقال : قتله الله ! كان
لنا جليسا عند عطاء بن ابي رباح ٦٨

وقد رضي عن عطاء كل الناس لانه لم ينتقص قدر أحد ، وكان
اكثر الناس حديثا عن سيرة علي بن ابي طالب ، وقد سئل :
أ كان أحدي اصحاب النبي أعلم من علي ؟ فقال لا والله ما اعلمه ٦٩ .
وتحدث عطاء عن عدالة عمر بن الخطاب ، وأفتى في صدقات الارض
وخراجها وفي حقوق السلطان ، وتكلم في ديات القتلى وفي الحدود ،
وأفتى بكراهة قتل الاسرى وفي كل مسألة من مسائل الفقه ٧٠
وقد أحبه بنو أمية فأمروا مناديتهم في الموسم الا يفتي الناس الا
عطاء بن ابي رباح .

عطاء هذا - وقد صار الى ما صار اليه من الفضل الذي لا

(٦٧) صفة الصفوة ج ٢ ص ١١٩

(٦٨) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٠٢

(٦٩) ألف با ج ١ ص ٢٢٢

(٧٠) انظر اخبار عطاء المنفرقة في الخراج لأبي يوسف

يجارى - كان يتمنى أن لو عرف العربية أحسن مما عرف ، ليدرك
ما غاب عنه من أسرار القرآن .

التجارة

وكانت التجارة حرفة قريش منذ القدم ، ولأهل مكة ثم
المدينة قدرة موروثة على الاتجار وايلاف الرحلة بها الى البلدان
وظمان الرجوع بربح موفور ، وكان أجسر البيوت على التجارة بيت
عبد المطلب ، وما زالت به هذه الحرفة حتى كان زين العابدين
فاتخذ كأجداده الوسطاء والوكلاء يذهبون بتجارته الى الشام والعراق
ويعودون ، ثم صارت الحرفة الى جعفر فتولاها بالوسطاء والوكلاء .
وأحسن جعفر نعمة المال وآلاء الربح فلم يطع ولم يطمع ،
وعرف حق الناس من ماله فأداه ليزيد بفضل ما اعترف وما
أحسن ، ولم يرض من وكلائه ان يسوقوا اليه ربحاً يرهق المشتريين
ويصيبهم بالغبن ، فاذا غمِنُوا أبى ان يقبض المال ورده على
وكلائه ليحملوا وزره . وقد قالوا ان وكلاءه جاءوه مرة بربح فاحش
فرده عليهم ولم يقبضه وقبض رأس المال ، ولولا بعد الشقة وطول
الطريق وان المشتريين تفرقوا في البلاد بعد الشراء ولم يعودوا
يُعرَفون لرد جعفر عليهم اموالهم ولم يعط لوكلائه منها شيئاً .
واتخذ جعفر من خلقه درعاً يقي بها نفسه مما يفزع التجار اذا

كسدت الأسواق وبارت المتاجر ، فكان إذا أصابه خسارة صبر حتى يهب الله الميسرة فإذا أيسر وصل الصبر بشكر الله وحده ، وقد جعل الصدقة تعبير الشكر إذا ربح وتعبير الرجاء إذا خسر ، فكان إذا املق جعل يتاجر الله بالصدقة فيوسع عليه ويزيد في نعمته . وقد جرب ذلك كثيراً فلم يقطع الله عنه وقد شهد هو بذلك فقال : اني لأملق أحياناً فأناجر الله بالصدقة فيربحني وأتسع ^{٧١} . فلم يجعل المساومة طريقاً فرداً لبيعه وشرائه بل كان يتخذ من الصدقة طريقاً أخرى ، وكان يرى صدقة السرّ أسرع في رضا الله وتعويضه عما خسر ^{٧٢} .

ولم يكتف جعفر تجاربه تلك عن الناس ، فأذاع سرّها عليهم وألحّ في الدعوة لتحريضهم عليها ، وجعل يعلم التجار علمه في الشكر والصبر ، ولا يفتأ يعظّم بأن يجربوا تجاربه ، وقد قالوا : إن رجلاً من التجار كان يختلف إليه لمودّة كانت بينهما ، ثم انقطع الرجل عنه ، ثم جاءه وقد تغيّرت حاله فجعل يشكو إليه كساد الزمان ، فأنشأ جعفر يبصره ويهونّ عليه ويلين له بالعظة وينشده شعراً ، وما زال به حتى سُرّي عنه ^{٧٣}

(٧١) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٣ - الحكمة الخالدة ص ١٧١

(٧٢) عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٣

(٧٣) الفصول المهمة ص ٢١١

ان جعفرأ كان يرى أرزاق التجارة تجري على غير نظام ، بل ان كل الأرزاق كذلك منذ خلق الله الدنيا ، يُوسَعُ فيها للحمقى ويضيّق فيها على العقلاء ، ولم يضجره ذلك ، بل انه اعتقد ان ذلك حجة على العقل لثلاثا يغترّ أحدُ بعقله وقوته ، وانه ليقول في ذلك : ان الله تعالى وسّع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ويعلموا أن الدنيا ليس يُنَال ما فيها بعمل ولا حيلة^{٧٤} . ومع كل ذلك فانه كان يرى أنه لا بدّ للتاجر من مصانعة الناس بلمودة اليهم فانهم سبب رزقه ، وقد قال أبو عبيدة للصادق : ادعُ الله لي ألا يجعل رزقي على أيدي العباد ، فقال الصادق : أبى الله عليك ذلك ، أبى الا أن يجعل أرزاق العباد بعضهم من بعض ، ولكن ادعُ الله أن يجعل رزقك على أيدي خيار خلقه فانه من السعادة ، ولا يجعله على أيدي شرار خلقه فانه من الشقاوة^{٧٥}

وكان على كل صانع في رأى جعفر حين يريد أن تروج في الناس صناعته وبكثر ربحه أن يكون حاذقاً بعمله ، وأن يؤدي الأمانة فيه ، وأن يكون قادراً على الدعوة لصناعته واستمالة الناس اليها^{٧٦} وهكذا رأى جعفر للتاجر والصانع أن يستميل الناس بالدعوة

(٧٤) الكشكول للبهائي ص ٦٣٢

(٧٥) أعيان الشيعة ج : القسم الثاني ص ١٩٤

(٧٦) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٨

والقدرة عليها ثم المصانعة بالموذّة فان الناس اسباب الرزق للناس
وقد أبى الله الا أن يكون رزق العباد من بعض الناس لبعض .

زينة الله

وكان الزمن قد صار الى الرخاء واليسر واللباس والزينة ، تفد
الى الناس مقتطعات وضروب ذات الوان من فارس ومصر وبلاد
اليمن ، وانصبّت خزائن الأرض في بيوت أموال المسلمين وايدي
تجارهم ، فلما رفع الله شرع الربح لجعفر لم يجد عليه من بأس في
أن يزدان بالثياب ويكتسي من طيب ما رزقه الله ، « قل من
حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ؟ فاتخذ
جعفر زينته عند كل مسجد وفي كل مجتمع وعند كل لقاء للناس ،
لأنه رآها يد الله على عبده يجب أن تشكر باعلانها .

لبس الفرقيّ ولبس الثياب المروية ولبس من الثياب الخرز
وما ابيض ونعم حتى كأنه غرقىء البيض ٧٧ . ولكن الناس
- وقد ولعوا بكل خلاف - عجبوا أن يفعل جعفر بن محمد ذلك ،
وكان لهم عذر مما يفعله الخليفة المنصور الدوانيقي ٧٨ بنفسه مع سعته

(٧٧) انظر صفة لباسه بأعيان الشيعة ج ٤ ، القسم الثاني ص ٩٤ -
والفرقي نسبة الى فرق ، والمروية نسبة الى مرو ، وغرقىء البيض القشرة
الريقة تحت الغليظة واسمها القبيض أما الزلال فاسمه الملح والصفار فاسمه الآح .
(٧٨) لعله سمي الدوانيقي نسبة الى الدوانيق وهي أجزاء الدراهم الصغرى
وذلك لعنايته بها ليخله .

وكثرة ماله ، فقد كان يضيّق على نفسه في الثياب ، وعلى نفسه
وضيفه في الطعام والشراب ، فقيل لجعفر بن محمد : ان ابا جعفر
المنصور لا يلبس - مذ صارت اليه الخلافة - الا الخشن ولا يأكل
الا الجشّب ٧٩ فقال : يا ويحه مع ما مكّن له من السلطان وجي
اليه من الخراج ! فقالوا : انما يفعل ذلك بخلاً وجمعاً للمال ! فقال :
الحمد لله الذي حرّمه من دنياه بما ترك له من دينه ٨٠ . ولعل هذه
القولّة من جعفر بلغت المنصور فأصرّها له وحقدها عليه .

والحق ان جعفر بن محمد لم يكن يلبس ما يزدان به ظاهره الا
اذا ذهب الى المسجد او الموسم او لقي الناس ، اما هو وحده ، واما
وراء هذا الظاهر فجة خليظة قصيرة من شعر خشن تلمس جسده ، فاذا
وجد من يومه كشف له عن جيبته واعلمه حقيقة حاله ، فاذا سأله
لم يفعل بنفسه هكذا ؟ قال : نلبس الجبة لله وانخزل لكم ، فما كان
الله اخفيناه وما كان لكم ابدينا ٨١

قال جعفر بن محمد : بينا أنا في الطواف اذا رجل يجذب ثوبي
واذا عبّاد بن كثير البصري ، فقال : يا جعفر ، تلبس مثل هذه
الثياب وأنت في هذا الموضع من المكان الذي انت فيه من عليّ ؟

(٧٩) الجشّب القفار لإدام معه

(٨٠) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٤

(٨١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢

فقلت : فرُّ قُبيّ اشتريته بدينار وقد كان علي في زمان يستقيم له ما
لبس فيه ، ولو لبست مثل ذلك اللباس في زماننا لقال الناس : هذا
مُراءٍ مثل عبّاد ! ^{٨٢}

وقال سفيان الثوري : دخلت على جعفر بن محمد وعليه كساء
من خز ، فجعلت انظر اليه تعجباً ، فقال لي : يا ثوري ، مالك
تنظر الينا عجباً ؟ قلت : انكم من بيت نبوة وتلبسون هذا ؟ قال
جعفر : يا ثوري ، كان ذلك زمان افتقار وافتقار ، وكانوا يعملون
على قدر فقره واقتاره ، وهذا زمان قد أسبل على كل شيء عزاليه ^{٨٣}
وكأن الثوري لم يرض بما قاله جعفر فعاد اليه قائلاً : يا ابن
رسول الله ، ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك ! فلم يجد جعفر بدأ
من ان يظهر له ما خبأه عنه ، فقال له : ما تدري ! أدخل يدك ،
فقد الثوري يده لذيل كساء جعفر يكشفه ليرى الثياب تحته ، فاذا تحته
مسح من شعر خشن ، ثم قال : يا ثوري ، ارني ما تحت جبتك ، فوجد
تحتها قيصاً أرق من غرقىء البيض . فخبجل الثوري من جعفر
وأمسك ، فقال له جعفر : يا ثوري ، لا تكثر الدخول علينا تضرنا
ونضرك ^{٨٤}

(٨٢) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٩٥

(٨٣) العزالي جمع عزالة بفتح العين مصب الماء من الراوية .

(٨٤) مطالب السؤول ص ٥٦ - الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢

ولو كان زي جعفر كله خبزاً أزرا وأردية لكان من وراء رأيه
وفتواه أمرٌ جدّ وفقهٌ شديد يحل مشكلة الداعين الى التقدم
والواقفين عند التأخر ، فان جعفرأ يرى الزمن حكماً في المطعم والملبس
والمسكن وما اليها ، والناس يلبسون زمانهم خشناً وناعماً ، فاذا
اتسع لبسوا جميلاً واكثروا طيباً ، واذا ضاق اكلوا ما أنبت ولبسوا
ما نسج ، وهم في الحالين لا يباح لهم الا المباح ، ولا يحل لهم الا
الحلال . وجعفر بن محمد لم يقدم على محرّم حين لبس جبة الخبز ،
ولم يلبس شيئاً يلزمه به الدين حين لبس تحت الخبز صوفاً .

وفي الامر وراء ذلك اشارة لطيفة للادب مع الناس ، اذ هو
يوصي بأدب التلاقي ، والمتلاقيان في اجمل زيهما ومظهرهما والناظرهما
أما الافراد الى الله فليكن بالحال التي يرضاها الله ، وما هو براض
عن مظهر او زي جديد ليس وراءهما خير . ولم يكن امره تعالى ان
يأخذ المؤمنون زينتهم عند كل مسجد من اجله هو ، ولكنه من
اجل هذا التأدب الذي يجب ان يكون بين الناس . وجعفر خير
من يدرك الحكمة ، وقد ادركها ، ثم علمها للثوري حين انكر عليه
الثوري ما لم يكن يعلم الحكمة فيه .

المهابة والوقار

وعلى جعفر مما ورث من آبائه ثوب مهابة يكتسي به ، فاذا

لقيه أنصاره وخصومه لم يملكوا أنفسهم من اجلاله وتوقيره والشهادة له ، وكان فيمن حدث عنه عمرو بن أبي المقدم قال : كنت اذا نظرتُ الى جعفر بن محمد علمتُ أنه من سلالة النبيين ^{٨٥} .

وكان لجعفر من الفناء الواسع في قصره الكريم ^{٨٦} ما يقصد الناس اليه للطعام والعطاء ، ولعله هو قصر جده زين العابدين ، فاذا ذهب للموسم ضرب فساطيطه بعد ان يرتحل على قطار من الابل في أهله وخدمه ومواليه ^{٨٧} .

وزاده مهابة علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا وورع تام عن الشهوات ^{٨٨} . وحياة كلها تأتٍ واستبصار وإيجاز من غير استرسال ، لأن سقطة الاسترسال كانت عنده لا تُستقال ^{٨٩} .

لقب الصادق

وكذلك شبَّ جعفر اماما نبيلاً فلقب بالصادق ، لقبوه جميعاً به ، لم يستثن أحدٌ من أصحابه أو خصومه لم يلقبه به ، كان

(٨٥) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٤

(٨٦) عقيدة الشيعة

(٨٧) الفصول المهمة ص ٢١٢ - مقاتل الطالبين ص ٤٣٧

(٨٨) الملل والنحل ج ١ ص ٩٥

(٨٩) الحكمة الخالدة ص ١٤٧

هناك اجماع تام لا خرق فيه على تلقب جعفر بن محمد بالصادق .
وصار له في الزمان كله علماً يعرف به ، وقالوا انه جرت في تلقيبه
به اقوال ، ولقب جعفر بألقاب أخرى . ولكن لم يشتهر منها واحد
كما اشتهر لقب الصادق .

ومن لم يثقل على نفسه في البحث قال : انه لقب بالصادق
لصدقه في مقالته او لصدقه في قوله وفعله ٩٠ . ومن اثقل على نفسه
بعض الشيء قال : ان الذي لقبه بالصادق ابو جعفر المنصور حين
اخبره انه سيلي الخلافة ثم وليها ، ثم قالوا : انه سمي بالصادق لأن
أبا مسلم الخراساني كان قد طلب اليه أن يظهره على قبر جده
علي بن أبي طالب فامتنع ، ثم أخبر ان القبر انما يظهر في ايام رجل
هاشمي يقال له ابو جعفر المنصور ، ثم انه أظهر التربة فأخبر المنصور
بذلك وهو في الرصافة ففرح وقال : هذا هو الصادق . ٩١

ولكن الأمر يحتاج الى دقة وتفصيل : انه انما سمي بالصادق
لأنه كان أكثر من كل الناس صدقا ، وكان في صدقه خالص
الصراحة لا يبالي احدا من أهله أو غير أهله متى نطق بالحق . ومع
انه لم يقل الا ما اعتقد أنه الحق ولم يعمل الا ما رآه حقا فانه لم يقبل

(٩٠) وفيات الاعيان أخبار جعفر بن محمد - حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

(٩١) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٩١

من احد قولها او عملا الا والصدقُ بيّن فيه والعدر واضح ، وقد مضى الصادق على ذلك في اثناء حياته كلها .

و بقي هناك ما هو أجل من ذلك خطرا وأعظم شأنا ، ذلك ان الكذب كان قد شاع في عصره شيوعا عظيما ، وتهافت الأمة في أقطارها المسكونة من الارض كلها على الكلام في القدر ، وتمرّغت في مراغات الاحاد والتفلسف ، وأدلى كل من الناس بدلوه في الفتنة الحقاء .

أما جعفر بن محمد فوقف يصمد التيار ويرسم للناس طريق النجاة الذي عرفه منجيا عن سلفه وآبائه ، دون زيغ او محاولة زائفة لا ثبات ما يعتقدده . بأدلة من الباطل ، وكان صحح حيثئذ ما كان اخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال « خير القرون قرني الذي بعثت به ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ٩٢ » وذلك يبدو انه من اهم الاسباب لتسميته بالصادق .

ولقد دقت أصوات الأراجيف بعلم الكلام أسمع اهل المدينة ، وسأل الناس فيه سيل الماء او سيل البحر ، حتى انهم قالوا : ان محمد ابن عبد الله الحض الملقب بالنفس الزكية ومعه جماعة اخرى من آل ابي طالب قد استجابوا لمقالة واصل بن عطاء حين ارسل اليهم أبا

(٩٢) المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ٦٤

أيوب بن الأديب رسولاً من عنده يدعوهم إلى مقاتلته في الاعتزال ٠٩٣ .
كانت الأراجيف غير عربية ثم استعربت لتمهيز الإسلام من قرب
وتصبيه من الداخل ، فتأثر بها المسلمون ، أما الإسلام فبقى كما كان
قوياً عزيزاً .

العِلم والأَدب

تعليم الله

من الناس من شرح الله صدره للعلم وأوسع في قلبه للمعرفة وأرهف من حسه للادراك ، ومن الناس من يدرك الأشياء وتفتح له مغاليق الأمور بغير جهد يذكر ، حتى كأنه يُلقن العلم تلقينا أو يُلقى به إليه الهاما . والهداية التي تصيب المفكر والمنقب والمخترع كثيرا ما تكون من لفظة قصيرة تصل به الى النتائج دون الحاجة الى التجارب والأزمة ، وهذه الاشراقات الواقعة في البشرية كل يوم تقضي على زعم من ينكر الهام الله ودفعه المعرفة الى القلوب .

وقد يخص الله بفضله قوما يتوارثون هذا الاستعداد وينفردون بهذا الاشراق ، وكما شئت ، فقل انه علم موروث ، أو قل انه استعداد موروث للعلم ، وليس هناك من سبيل لانكاره ما دام حقا واقعا في الناس كل حين . وان يشأ الله يختم على القلوب فلا تدري

علما ولا تتفتح خير ٩٤ .

وجعفر بن محمد تفتح قلبه للعلم وكان يقظا بصيرا ، حتى ان ما افيض على قلبه من مجال التقوى جعل الأحكام التي لا تُدرَكُ علَّها ، والمسائل التي تقصر الأفهام عن الاحاطة بها مُدرَكَةً لديه مكشوفة بفهمه الثاقب وقلبه البصير .

بيت أبي طالب

ولقد ارتفع شأن العلم والأدب في بيت أبي طالب منذ كان أبو طالب حتى في الجاهلية ، فلما كان عليّ ابنه كان الباب الذي يُدْخَلُ منه الى علم رسول الله ، ما في ذلك ريب ، وقد شقق عليّ العلوم بفكر ثاقب وبصر دقيق حتى كأنه كان ينظر الى الغيب من ستر رقيق ، ثم تفرَّق علمُ عليّ على الناس من أهل بيته ومن غيرهم فلا فجاج الارض .

ومع الهول الذي رمت به الاحداثُ حسنا وحسينا وأهل البيت من بعدهم ، فان صوت العلم ظل يرتفع في بيت أبي طالب وقَدْرَه يعاوي . وقد انحسر العلمُ عن بيوت كثير من اولاد الصحابة واتبعوا الدنيا ، او انحسر العلم والفقهِ كلُّهُ في كل الاقاليم عن العرب الى الموالي ، اما هذا البيت فلم يكن فيه مُنْحَدَرٌ لينحسر منه

(٩٤) انظر قوله تعالى : فَأَنْ يَشَأَ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَىٰ قَلْبِكَ ... سورة الشورى

العلم أو يغيض .

فلما كان محمد بن علي تبقر في العلم وجعل يرفعه فوق العبادة
قائلاً : عالم يُنتَفَع بعلمه أفضل من الف عابد ٩٥ . ثم جاء ابنه
جعفر يؤكد هذا الرأي ويعمل به ، فجعل العلم همه كله أخذاً
وعطاءً ، وانصرف إليه انصراف من يُرى كأنه لا يشتغل بشيء
سواه . ومن طريق العلم يتحقق كل رأي يريد جعفر في السياسة
أو في غيرها ، وكلما يريد ، وما كان جعفر يريد من السياسة إلا ان
يقوم الدين ويتحقق العدالة وتتصل المروءات بين الناس .

عاوم الدنيا

وأطلت عين جعفر على حقائق العلم فرآها في علوم الدنيا وعلوم
الدين ، فلم يدع واحداً منهما ليُلْقِي نفسه على الآخر ، وإنما قدّم
ما حقه التقديم ، ولم ينس نصيبه من الدنيا ، وأخذ يسبق الى مسائل
العلم المادي لأنه رآها معينةً على علوم الدين ولا غنى للدنيا عنها ،
وكثير من مسائل العلم يشترك فيه الدين والدنيا فلا ينفصلان ، وقد
صار له في كل ناحية منها خبرة تدلّ على أنه قد غاص الى قرارها
أو كاد .

وكيف يكفُّ علماء المسلمين عن علوم الدنيا والدين الاسلامي نفسه

(٩٥) التصول المهمة ص ١٩٥ - مطالب السؤول ص ٥١

يتخذ هذا العالم مادته التي يطبق عليها تعاليمه واحكامه تطبيقاً واقعاً
لا خيالاً ، فالغرابه ان يبتعد مثل جعفر عن علوم الدنيا ، بل انه
لمن المستحيل على مثله الا اذا أخذ أحكام دينه ليضرب بها في
تيهاء من الخيال .

الكيمياء

وقد اكثر الرواة من قولهم : إن له مقالا او كلاماً في صنعة
الكيمياء^{٩٦} ، وقالوا ان تلميذه جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي
قد ألف كتاباً يشتمل على الف ورقة تتضمن رسائل جعفر بن محمد ،
وهي خمسمائة رسالة^{٩٧}

وما من شك في ان الفراعنة والاغريق قد سبقوا العرب في
دراسة الكيمياء بقرون^{٩٨} ، وما من شك في ان جعفر بن محمد قد
سبق بدراستها عند العرب بخالد بن يزيد وغيره ، وقد اعتمد خالد
علي كثير مما عرّب له ، ويقال : عربت لخالد كتب الطب والنجوم
ويقال : فانما وَاكْبَهُهُ كان في صناعة الكيمياء ، وله في ذلك رسائل
وكان قد اخذ تلك الصناعة عن رجل من الرهبان يقال له مرياس

(٩٦) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

(٩٧) وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٩١

(٩٨) انظر « جابر بن حيان » من سلسلة اقرأ بمصر . وانظر الامام
الصادق عليهم الكيمياء من سلسلة حديث الشهر بالعراق

الرّوْصي ٩٩ ثم اقبل جعفر بن محمد على الكيمياء اقبال من يريد
فتح كنوز الكون وضرب المثل أمام التلاميذ ليسلكوا في مسالك
الحقيقة كلما وجدوها ، وفي رحلة جابر بن حيان الى الكوفة كان
اتصاله بجعفر فلزمه تلميذاً وصديقاً وتلقى عنه هذه الصناعة ١٠٠

ثم رحل جابر بما تعلمه الى بغداد ، ومن هناك ذاع فضله في
الكيمياء متبعاً طريق استاذه التي دله عليها ، ولا سبيل الى انكار
ذلك بعد اعتراف جابر نفسه بتعاليم استاذه ، ولو كنا بسبيل عرض
مسائل جعفر في الكيمياء لعرضناها . واذا انكر منكر فضل جعفر
فما يضير جعفر ان لم يكن رجلاً من أهل الكيمياء ! الا ان
انقطاعه الى العلم الخالص وتتبعه الخطوات التي يخطوها العلم في
البلدان ، وادراكه النهضة التي يسير العلم اليها يكاد يدلنا على
الصدق الصريح في الاخبار بكيميائه .

ومن الغريب ان يقترن الاخبار عن عمله في الكيمياء بعمل له
في الزجر والفعال ١٠١ . وكأن الرواة تصوروا الكيمياء سحراً وشيئاً
غريباً . ولما كانت مجهولة الاسباب قرنها بالزجر والفعال حتى لا

(٩٩) لوائح الانوار البهية ص ١٠ - وينسب الى خالد كتاب الفردوس في
الكيمياء معجم البلدان ج ٦ ص ١٨١
(١٠٠) جابر بن حيان وخلفاؤه ص ٣٧
(١٠١) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

يكون للحوادث سبب ظاهر وسر معروف . اما الكيمياء فمعروفة
الظواهر مقيدة العناصر مقدورة النتائج ، وفي مثل هذا يعمل جعفر .
ولعل اشتغاله بالعلم الخالص وانقطاعه الى العبادة في بعض
الاحيان ثم خروجه للناس بتجارب من الكيمياء ومسائل من العلم
تحفى أسبابها ودقائقها على الناس - لعل ذلك دفع في قلوب الناس
منه أو هاماً فجعلوا يهتمونه بالتنجيم والجزر ، وهم بذلك لا يريدون
الا ان يزيدوا في فضله بما توهموه من الفضل ، وهو واجب أن
يكون محالا في شأن جعفر بن محمد الامام .

وقد اثر جعفر في تلميذه جابر اثرأ خلقياً بالغاً ، فحين املى عليه
رسائله في الكيمياء علمه كيف يصنّف في هذا العلم ، وكيف
بختار ما يتضح به المعنى ، وكيف يجرب حتى لا تترجح النتائج بين
الصدق والكذب ، وكيف يكون خلق الصبر والدأب معاوناً على
الوصول الى معرفة الحقائق . ومن ثمّ صحّت تعبيرات جابر أن
تكون مثلاً يحتذيه أهل اوربة ويقلدونه ١٠٢

حساب الفلك

وروى القزويني أن جعفر بن محمد قال : اذا اشكل عليك أول
شهر رمضان فعدّ الخامس من الشهر الذي صمته في العام الماضي

(١٠٢) جابر بن حيان وخلفاؤه ص ٤١

فانه اول يوم من شهر رمضان الذي في العام المقبل . قال القزويني :
وقد امتحنوا ذلك خمسين سنة فكان صحيحاً ١٠٣ . واذا صح
ذلك كان اهتماماً من جعفر بمسألة تشغل البال في امر الهلال ، فانه
كثيراً ما يُعَمَّم على الناس في مكان ويظهر في مكان ، ويتضح
عاماً ويختفي آخر ، بما يكون عليه الحال في جو السماء من صفو
وكدر فيضطرب الناس في الشهر . ولعل جعفرأراد أن يسلك
بالناس طريقاً من الحساب لا يخطئ ، واجتهده له وجعل يرصده
ويقيده يرصده كل عام حتى استقامت له النتيجة بالمشاهدة . وهذا
الأمر لو صح من جعفر لكان عملاً لاقرار الامور على قواعد من
العلم لا تتنافى مع ما امر به الدين من الصيام عند الرؤية ، فان
التحقيق العلمي يكون كالرؤية وأوثق منها ١٠٤

أما ما قيل من ان جعفرأ اشتغل بالتنجيم فأمر مردود كما رُذِّق
قول القائلين بانه اشتغل بالزجر والقال . ١٠٥

-
- (١٠٣) عجائب المخلوقات بهامش حياة الحيوان ج ا ص ١٢٧
(١٠٤) هذه حسبة دينية والمراد تعتمد اليوم الحساب لا الرؤية بالعين
الجردة ، فقد يكون زمن الهلال اول ليلة من رمضان دقيقة واحدة فوق الأفق
فلا يرى . وقد اعتمدنا في هذا قول صديقنا مواهب فاخوري الحيسوبي اللبناني
وقد اعتمد هو كتابا جاءه من مرصد حلوان بمصر يوافق رأيه .
(١٠٥) انظر دائرة المعارف الاسلامية المجلد ٦ العدد ١١ ص ٤٧٣ .

العلم بالحيوان

وقالوا: حكى ابو الفتح كشاجم في كتاب المصايد والمطارد أن جعفرأ سأل أبا حنيفة النعمان فقال له: ما تقول في مُحْرَم كسَرَ رباعيةَ ظبي؟ فقال النعمان: ما أعلم ما فيه، فقال جعفر: أنت تتداهى ولا تعلم ان الظبي لا تكون له رباعية، وهي ثنيّ أبدأ ١٠٦ وهذا الامر انما كان العلم به لخدمة الدين، فبه يعرف الكذب من الصدق في الدعوى، وبه تعرف الديات وتقدر الحقوق، ومن تعرض للفقه والقضاء كان عليه أن يعرف أين يقع الكذب وأين توضع الدية ويقدر الحق. وحسبُ ابي حنيفة ان يتعلم هذه وحدها من جعفر، وله بعدها ان يتهجّر لدراسة علم الانسان والحيوان، وله بعدها ان يقيس.

وليس على ابي حنيفة من بأس اذا تعلّم، ولا سبيل الى انكار أخذه من جعفر، لا سبيل الى ذلك قط، فان في خراج ابي يوسف مسائل كثيرة رُدَّ اسنادها الى الصادق، وما من ريب في ان النعمان كان سبيل ابي يوسف اليها.

أمكنة في الارض

وقد عني جعفر بن محمد بكثير من الامكنة في الارض وأرّخ لها

(١٠٦) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩٢ - حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

وكان يعنى العناية كلها بمكة وما حولها ، فأخبر عن البيت العتيق
وانه انما سمي بذلك لان الله تعالى أعتقه من الطوفان ١٠٧ ، وقد
جرى الناس في اثر جعفر يقولون انه سمي بذلك لانه أعتق من
الجبابة ، أو سمي كذلك لسلامة الكعبة من الرق ١٠٨ . واخبر
جعفر عن بناية البيت العتيق أول مسا بني في الارض ، وقالوا انه
اخبار أن ذلك كان منذ اراد الله ان يجعل الانسان خليفة في
الارض ١٠٩ . وفتح جعفر الباب فولوج الناس .

وسئل عن بعض الامكنة وفضائلها فأجاب : سئل عن الحطيم
اين هو ؟ فقال : هو ما بين الحجر الاسود والباب ، فقيل : ولم سمي
الحطيم ؟ فقال : لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً عنده ، وجرى الناس
في اثره فقالوا : لأنه يحطم من استخف به . وسئل عن الركن اليماني
فقال : بابنا الذي ندخل منه الجنة ١١٠ . أليس ذلك كله في
خدمة الدين ؟

وقد اخبر عن علمه بما لبعض الامكنة القريبة والبعيدة من مزية
وتاريخ : قال ابو حمزة الثمالي : قال لي ابو عبد الله جعفر بن محمد

(١٠٧) الفصول المهمة ص ٢١٠ - نور الأبصار ص ١٤٧

(١٠٨) حياة الحيوان ج ٢ ص ٢١٠

(١٠٧) معجم البلدان ج ٧ ص ٢٥٦

(١١٠) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٧٨

الصادق : يا أبا حمزة ، هل تعرف مسجد سهل ؟ قلت : عندنا مسجد
يسمى السهلة ، قال : أما لني لم أرد سواه ! لو ان أحداً أتاه فصلتى
فيه واستجار ربه لأجاره ١١١

وقال ياقوت : وحدث بعض أهل همدان قال : قدمت على ابي
عبد الله جعفر بن محمد الصادق فقال لي : من اين أنت ؟ قلت
من الجبال ، قال : من أيها ؟ قلت : من همدان ، قال : أتعرف
جبلها الذي يقال له رَاوَنَدٌ ؟ فقلت : جعلني الله فداك ! انما يقال
له أُرْوَنَدٌ ، فقال : نعم ، أما إن فيه عيناً من عيون الجنة !

قال ياقوت : فأهل البلد يروُن أنها الجمّة التي على قلة الجبل ،
وذلك ان ماءها يخرج في وقت من اوقات السنة معلوم ، ومنبعه في
شقّ صخرة ، وهو ماء عذب شديد البرودة ، يشرب منه الشارب
فلا يرتوي ... فاذا تجاوزت أيامه المعدودة التي يخرج فيها ذهب
الى وقته من العام المقبل ، وهو شفاء للمرضى ، يأتون من كل وجه
فيكفيهم جميعاً ، وكأنما يكثر ماؤه اذا كثر الناس عليه ويقل اذا
قلوا عنه ١١٢

ومن الغريب ألا يذكر جعفر بن محمد السهلة وأروند بلفظيهما

(١١١) السهلة مسجد بالكوفة - معجم البلدان ج ٥ ص ١٨٧

(١١٢) معجم البلدان ج ١ ص ٢٠٨

المعروف عند أهلها ، وكأنما هو لا يُعنى بالاسم لذاته وإنما يُعنى
 بخصائصه ومميزاته ، ثم لا فرق هناك بين سهل والسهلة وراوند
 واراوند ، وما جدوى حفظ أسماء في الأرض إذا لم تُعرف بفضائلها ؟
 وجعفر بن محمد كان يحميد الرحلة من المدينة الى مكة ، ويعرف
 البُرْدَ والفراسخ ١١٣ والأرض التفرة والمنزل الخصيب ، ويعرف
 الطريق بين الحجاز والعراق ، ويُدري تمام الدراية آثار الطفِّ
 وأما كن المواقع والقبور بها - ما كانت يعرفه الناس وما كانوا
 يحولونه - وكان أعرف الناس بقبر جدّه عليّ لأنه ووري عن عيون
 الناس ، وقد حدث جعفر عن أبيه قال : صلى الحسن على علي رضي
 الله عنه ودفن بالكوفة عند قصر الامارة وعمّي قبره لثلاثا تنبشه
 الخوارج ١١٤

ولقد سار الناس في أثر جعفر فعرفوا عليّ القبر الذي دلّ عليه ،
 وفتح جعفر الباب فولج الناس : جاء رجل من أهل الخيرة الى الرشيد
 وهو في الصيد فقال له : يا أمير المؤمنين ، أرأيتك ان دلتك على
 قبر ابن عمك علي بن أبي طالب ، ما لي عندك ؟ قال : أتم مكرمة !
 قال : هذا قبره . ودلّه عليه . فقال له الرشيد : من أين علمت هذا ؟

(١١٣) مقاتل الطالبين ص ٤٣٧

(١١٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٠

قال : كنت أحيي مع أبي فنزور قبره ، وقد اخبرني أنه كان يحيي مع جعفر الصادق عليه السلام فيزوره ، وأن جعفرا كان يحيي مع أبيه محمد الباقر فيزوره ، وأن محمدا كان يحيي مع أبيه زين العابدين فيزوره ، وأن زين العابدين كان يحيي مع أبيه الحسين فيزوره ، وكان الحسين أعلمهم بمكان القبر . فأمر الرشيد أن يحجر الموضع . فكان أول أساس وضع فيه ١١٥

هذا ، أما مواطن نزول القرآن ، فما من ريب في أنه كان يعلمها عن آبائه عن علي - كرم الله وجهه - علم اليقين .

علوم الدين

وانه - وان كان جعفر قد حاض في علوم الدنيا - قد كان همه الأول علوم الدين ، هو أولى بها وهي أولى به ، وقد ذاع عنه منها ما لم يذع عن أهل بيته كثرة وتفصيلا ، وكان لصاحب مذهب أن ينضج عنده الاحساس اللغوي ويرتقي نضجا ورقيا لا يداخلهما نقص ، وكان جعفر من هذه الناحية ابن البيت الذي لم ينضج بالفصاحة بيت مثله ، ثم كان لا بد لصاحب مذهب أن يلم بأحكام القرآن كله . ومن يطلع على تفاسير جعفر يره لا يكاد يترك كثيرا من مشكلات القرآن الا وهو يدلي فيها برأي ويقول فيها ما يعلمه .

(١١٥) حياة الحيوان ج ٢ ص ٢٢٦

ثم كان لصاحب مذهب أن يعلم حديث رسول الله ويستمع به
وبسيرته ، وما اظن الصادق في حاجة لأن يقول فيه الناس انه كان
يعلم ، فاذا لم يكن الصادق يعلم فمن الذي يعلم ؟ ثم كان جعفر بعد
ذلك كله آية في الاخلاص والتنزه عن الغاية ، ثم كان شعلة من
ذكاء .

الحديث

ومن الناس من يقول انه لم يرو الا عن أهل بيته . ومنهم
من قال انه روى عن جدّه لأمه القاسم بن محمد ، ولم يرو عن جدّه
لأبيه علي زين العابدين - وقد أدركه وهو مراهق - ولكن جعفر
روى عن جدّه زين العابدين ، وكان حان له ان يروي عنه ، واذا
كان ابوه الباقر روى عن أبيه فليس يدري احدٌ لماذا جهلوا ذلك ،
والصادق يروي عن الباقر ، فهو لا بدّ آخذ من جدّه لأبيه عن
طريقه ١١٦

وقيل انه أسند عن عروة بن الزبير وعطاء بن أبي رباح ونافع
والزهري ١١٧ ، وروى عن محمد بن المنكدر ١١٨ وقد روى عن

(١١٦) انظر النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩ وانظر الخراج للقرشي

(١١٧) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩ - اسعاف الراغبين ص ٢٢٧

(١١٨) طبقات الصوفية ، الحاشية ، ص ٤٩٨

طبقة أبيه وجده القاسم ١١٩ . وهكذا روى الصادق عن هؤلاء ،
وعني بالرواية وعرف بدرابته الواسعة للحديث ١٢٠
رَوَى عن أبيه . ورَوَى منقطعاً . وروى فقهياً في العبادة عن
طريق عثمان . وروى عن جده القاسم الذي روى عن عائشة وابن
عباس . وقالوا : لم ينقل العلماء عن احد من اهل بيته ما نقل عنه
من الحديث فاستفاد منه جماعة من الأئمة ١٢١ . وقال ابو حاتم :
جعفر الصادق ثقة لا يُسألُ عن مثله ١٢٢ وقد وثقه ابن معين
وابن عدي من رجال الحديث ١٢٣ .

وأورد له أبو يوسف روايته عن أبيه عن عمر بن الخطاب أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ان يُسنَّ بالجووس سنة اهل
الكتاب . وهذا يتصل بفقهِه جده علي بن ابي طالب فإنه افتى ان
الجووس كانوا أمة لهم كتاب يقرأونه ١٢٤

وقد ارتضى أهل السنة طريقه فرووا عنه ، وبعضهم ظلم
الحقيقة حين قال ان أهل السنة ابتعدوا عن روايته بسبب تلاميذه .

(١١٩) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠

(١٢٠) دائرة المعارف الاسلامية المجلد ٦ العدد ١٢ ص ٤٧٣ ؛

(١٢١) مطالب السؤول ص ٥٥

(١٢٢) نور الأبصار ص ١٤٥

(١٢٣) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠

(١٢٤) الحراج لابن يوسف ص ١٣٠

والحق ان اهل السنة لم يبتعدوا عن الرواية له ، وهل كان في استطاعة أحد ان يصدّ تيارات الرواية للحديث حين ذلك ، أو أن يفصلوا بينها ؟

أما الشيعة فروت عنه عن طريق آبائه ، وهم ينسبون اليه مسنداً كبيراً لم يطبع بعد ١٢٥ . على ان الطريق التي روى عنها جعفر بن محمد أحاديث الرسول وأخبار السلف لم تكن بعيده ولا منقطعة ، بل أخذت خطأً قصيراً مستقيماً ، فمن النبي الى فاطمة او علي ، ومنهما الى اولادهما ، ومنهم الى الاحقاد . ولم تنقطع الصلة بين أب وابنه منهم قط . فعلي وفاطمة عاشرا النبي واخذا عنه ، وحسن وحسين عاشرا جدتهما وأبويهما وأخذا عنهم ، وزين العابدين عاشر أباه الحسين واخذ عنه ، ولعله سمع الى عمه الحسن ، ومحمد الباقر عاشر اياه واخذ عنه . وجعفر ابنه عاشر جده زين العابدين وأخذ عنه ثم اخذ عن محمد ابيه . فحلقات السلسلة لم تنفصم ابداً ، بل اخذت تتداخل وتماسك وتتصل ، كل حلقة بما قبل التي قبلها وبما بعد التي بعدها ، فكان نبض حياة الرسول لم يسكت في هذا البيت أبداً ، بل ظل قوله وعمله مسموعاً مذكوراً .

(١٢٥) لقد عزموا في النجف على طبع مسند الصادق وهم يجمعون له المال اليوم ، وكان جديراً بواحد من اغنياء المسالمين والشيعة ان يكفي الناس !

وجعفر وان كان سبط القاسم بن محمد، ويعد في الطبقة الخامسة من تابعي أهل المدينة، إلا أنه عاشر أهل الطبقة الثانية من التابعين، وليس يشبه طريقه طريق آخر إذ لا يتداخل الأجداد والأحفاد في طريق أخرى هذا التداخل. وحين نطق جعفر بما لم يكن نطق أبؤه به من قبل سمي بالصادق، لأن طريق روايته هو لا شبهة فيه، وحين أكثر من الرواية لم يكن هناك شك في أن آباءه حدثوه بكل ما أخبر أنهم حدثوه به، وكانوا هم - للحوادث التي أحاطت بهم - قد أمسكوا عن الحديث به للناس.

•
 وانهم ليقولون إن أربعة آلاف رجل رووا عنه، فماذا يكونون قد رووا من ألوف الأحاديث؟ وليس الأمر حسبة تتضاعف فيها الأعداد وتربو، وإنما هو حديث الثقة مهما كان قليلا: وأبو حاتم - وهو من رجال الحديث - يقول: جعفر الصادق ثقة لا يُسأل عن مثله. ومالك بن أنس - وهو أحد من روى الحديث في موطنه عن جعفر الصادق - يقول: ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله في القلب ١٢٦.

وقد عرّض ابن حجر العسقلاني في كتابه «لسان الميزان»

(١٢٦) صفة الصفوة ج ٢ ص ١٠١

أسماء الرواة الذين رووا عن جعفر ، ولسنا هنا بمعرض ذكرهم
واحصاء عددهم ، وهم هناك لمن اراد أن يعرفهم ، ولكننا لاحظنا
أن جمهور رواته من أهل الكوفة ، ثم يليهم أهل البصرة ، وبعدهم
المدنيون والمكسيون . وقد لاحظنا أيضاً أن الكوفيين هم الذين
حملوا حديثه الى فارس والى مدينة « قم » ومن قم انتشر مذهب
الامام . ولم تكن كورة يغلب فيها التشيع اكثر من قم ، وأن أهل
الكوفة - كانوا من قبل جعفر - أول من حمل الحديث ورواه عن
الباقر وابيه زين العابدين ١٢٧ ، فحملهم عن جعفر امتداد للتيار
الذي كانوا يسرون فيه .

وكذلك أرسلت الكوفة والبصرة وواسط والحجاز الى جعفر
ابن محمد أفلاذ اكبادها من كل قبيلة : من بني أسد ومن غني
ومخارق وطبي وسليم وغطفان وغفار والأزد وخزاعة وخشم ومخزوم
وبني ضبة ، ومن قريش ، ولا سيما بني الحارث بن عبد المطلب
وبني الحسن بن علي .

ورحل اليه جمهور من الأحرار وأبناء الموالى من أعيان هذه
الأمة من العرب وفارس ولا سيما مدينة قم ، فلما كانوا تلاميذه
ذهبوا مذهبه عن ايمان صادق وتشيعوا له ، ولم يعد أحد منهم

قطّ عن تشيعه والثقة فيه والايان به ، وعدّوا اخذهم عنه مفخرة

لا تسامى ١٢٨

ومن جعفر الصادق وغيره ، ومن تلاميذه وتلاميذ غيره اخذ الحديث ، وأغرب الأمر أن يقول بعض المتأخرين من الفقهاء : ان الناس لم يأخذوا من حديث جعفر ! يقولون هذا ، ومالك وأبو حنيفة وتلميذه أبو يوسف ثم ابن جريج وشعبة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وغيرهم كانوا قد اخذوا عنه وشبعوا اخذوا ١٢٩

القصص

ولست أريد أن اقول : ان جعفر بن محمد كان قصاصا ، فان القصص وحده واحترافه كان بغيضا عند المسلمين ، لأنه كان سهل المئونة ، وهو اداة افهام العامة ، وفيه تدخل الاكاذيب وبنات الطريق من الترهات ، لأن القاص لا يُطلب منه لفظ بعينه ولا معنى بذاته ، ومن هنا كانت كراهة القصص ومحافته على الحديث .

وانما اريد ان جعفر بن محمد كان يعلم مسيرة هذا الدين منذ نزل من السماء وسار به أهله ، وكان الصادق لذلك يبسط القصص الديني حين يحمله القرآن ويعرض لفتوى الناس حين يسألونه ، وكان

(١٢٨) انظر كتاب لسان الميزان - مطالب السؤال ص ٥٥

(١٢٩) انظر النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩

رضي الله عنه آتم الناس علما ببناء البيت الحرام ١٣٠ وقصة ابراهيم
ومسيره الى بادية الشام ، وقصة تحوّل القبلة الى الكعبة بعد أن
صلى الرسول بمكة ثلاث عشرة سنة وهو يولي وجهه شطر بيت
المقدس ١٣١ .

وروي عن جعفر انه حدّث عن اقطاع النبي بعض الارض
لاصحابه : حدّث عن اقطاع النبي عليا بترقيس والشجرة ، او
اقطاعه اياه اربع أرضين : الفقيران و بترقيس والشجرة . واقطاعه
عمر بن الخطاب ينبع ١٣٢

ولم يكن بدّ أن يعلم جعفر دقائق السيرة في بيت ابي طالب ،
فاذا سئل فيما يحتاج الناس الى معرفته منها انبأهم انباء الخبير واعطاهم
ما لم يكن احدٌ من الناس يعلمه . ومن جعفر عرف قبر علي وذاع
عرفه وان كان لم يكتم فشمّت أريجه الظباء . ومن جعفر عرف
مدى الحزن في نساء بني هاشم على الحسين ، فانهن امتنعن من
الزينة فلم يخنضبن ولم يكتحجان ، وما طهون طعاماً منذ قتل حتى
اقتص الله له وشفى صدورهن بمقتل ابن زياد ١٣٣

(١٣٠) مجمع البيان ج ١ ص ٢٠٤

(١٣١) مجمع البيان ج ١ ص ٢٠٧ ، ٢٢٣

(١٣٢) الخراج للقرشي ص ٧٨ - معجم البلدان ج ٨ ص ٥٧٦

(١٣٣) محمد بن الحنفية ص ١٣٥

ومن جعفر ذاعت قصة يوم البصرة ، وحدث فيها الصادق
عن فضل علي على اصحابه الذين حاربوه يوم الجمل . قال أبو يوسف :
وحدثنا بعض المشيخة عن جعفر بن محمد عن ابيه أن علياً رضي الله
عنه أمر مناديه فنادى يوم البصرة : لا يتبع مدبر ولا يُذَفَّف على
جريح ولا يقتل اسير ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن القى سلاحه
فهو آمن . قال جعفر بن محمد : ولم يأخذ من متاعهم شيئاً ١٣٤

ومن جعفر عرفت قصة ابن الحنفية وتحلفه عن الخروج مع اخيه
الحسين بن علي ، وقد أخبر الصادق انه تحلف رغبة من اخيه الحسين
نفسه ، ولم يكن تعوداً عنه ١٣٥

وهذا قصص لم ينفصل بعضه عن القرآن وانفصل بعضه . ولم
يكن جعفر يقعد للناس ليقول لهم ما لا حاجة بهم اليه ، وانما كان
يجيبهم اذا سألوا ، ويوجز فيما يجيب . وكان القصص عنده علماً ولم يكن
رواية ، وكان تهذيباً ولم يكن تسلية ، وكان صدقاً وحقاً ولم يكن
خيالات وأساطير .

العلم بالقرآن

وَنَدَّر ان يجمع القرآن بصدده أحدٌ كما جمعه الأئمة من أهل

(١٣٤) الخراج لأبي يوسف ص ٢١٥ - ويذفف = يجهبز

(١٣٥) محمد بن الحنفية ص ٦٦

البيت ، قد جعلوه أول فرائض العلم ، وتعصبوا له وخافوا أن هم
اهملوه ان يتفصم منهم فانكبوا عليه ولهجوا به حتى حضر في اذهانهم
حضوره مقروءاً واضحاً بين دفتي المصحف . وما سئلوا في شيء منه
الا اجابوا . لم يغيب عن خواطرهم قط . وما سئلوا في شيء من
غيره الا ردّوه اليه واجابوا به ما استطاعوا . والجواب من القرآن
مفحم مغيث .

واجتمع عند جعفر بن محمد من علم القرآن ما كان يعلمه منه
اهل البيت ، وما كان يعلمه ابن عباس وسعيد بن جبيرة وقتادة وعطاء
وابن زيد وابن عمر وغيرهم من صحابة النبي والتابعين ، من الذين لم
يكن همهم الا الكتاب . ولو لم يصبر الى جعفر الا علم علي بن ابي
طالب لكفى ، فمن علي أخذ الناس ، وما علم اولئك الا قيس منه .
وابن عباس يقول : ما اخذت من تفسير القرآن فعن علي بن ابي
طالب . وعن عامر بن وائلة أن علياً قال في احدى خطبه : سلوني
عن كتاب الله ، فوالله ما من آية الا انا اعلم ابليل نزلت أم بنهار ،
ام في سهل نزلت ام في جبل ١٣٦

واجتمع لدى جعفر كل رأي في لفظ وآية تفسيراً وأحكاماً

(١٣٦) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٥

وأَسباب تنزِيل ونظام ترتيب . وله في سورة البقرة وحدها ١٣٧
أكثر من عشرين رأياً تناولت الكلام عن رموز القرآن وتفسير
ألفاظه وبيان اغراضه وأتجاهاته ، وعن قصصه واسباب نزول الآيات
وامكنتها ، وعن ناسخه ومنسوخه ، وفرائضه وعظاته واحكامه
وفضائله .

ويتضح في تفسير الصادق اتجاهه الى التأويل ، فقد أول الرزق
بالعلم ، والشقاق في بعض الآيات بالكفر ، وصبغة الله بالاسلام ١٣٨
والحرث في بعض الآيات بالدين ١٣٩ والسفيه بشارب الخمر ١٤٠ .
ويتضح كذلك أنه يحمل المفهوم الى انلصوص احياناً
كثيرة ، وذلك اصابة عالية للغرض المراد ، فحيث فسّر قوله تعالى :
« ومما رزقناهم ينفقون » بقوله : ومما علمناهم يشون ، حمل على
الانلصوص وعد العلم رزقاً وهو خير الرزق . وليس يمنع من تفسير
جعفر ان يراد بالرزق العموم ، اذ حقيقة الرزق ما صح ان ينتفع به ،
ولا يمنع تفسيره ان يفسر بالمال والصحة والاولاد وغيرها ، ولكن
الصادق خص العلم لشرفه وعظيم منفعة .

(١٣٧) انظر مجمع البيان للطبرسي ج ١

(١٣٨) مجمع البيان ج ١ ص ٣٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٨

(١٣٩) مجمع البيان ج ٢ ص ٣٠٠

(١٤٠) مجمع البيان ج ٣ ص ٨

وحيث أوّل الصادق الحكمة بالقرآن والفقّه ١٤١ حمل على
الخصوص لكون القرآن والفقّه يضمنان بين صدريهما الحكمة
جميعا، وهي لا تخرج عنهما.

ويتضح في تفسيره أنه - وإن اتفق أو اختلف مع كثير من
الصحابة والتابعين في بعض آرائهم - لم يخالف أباه الباقر في رأي
قط، وكثيرا ما عرض صاحب مجمع البيان رأيهما معا.

والصادق يذكر علمه بالناسخ والمنسوخ ١٤٢ كما يحكم القول في ردّ
المتشابه إلى الحكم ١٤٣. وعنده علم بوجوه القراءة في القرآن، وقد
حكى في كتاب البواقيت لأبي عمرو المطرزي أن جعفر بن محمد
الصادق قرأ « وكالبهم » مكان « كلبهم » في سورة الكهف
- وهي قراءة لها خطرهما - وقد أراد الصادق أنه رجل كان يخدم
أهل الكهف ١٤٤ من الرعاة أو من غير الرعاة

وأسباب التنزيل يعلمها جعفر. وفيما أثر عنه من ذلك أنه روى عن
أبيه أن النبي أمر بالصدقة وجاء رجل بتمر رديء، فنزات « ولا

(١٤١) مجمع البيان ج ٢ ص ٣٨٢

(١٤٢) انظر مثالا منه بمجمع البيان ج ١ ص ٢٢٨

(١٤٣) ومثاله قوله ان إبليس لم يكن من الملائكة - وعليه مذهب

الامامية - وقد ردوا ذلك إلى قوله تعالى إلا إبليس كان من الجن - مجمع البيان

ج ١ ص ٨٢

(١٤٤) حياة الحيوان ج ٢ ص ٢٨٧

تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيهِ الا أن تغمضوا فيه» ١٤٥
أما بعضُ ما ردَّ جعفر علمه للقرآن فنه قول جعفر: دعا الله
الناسَ في الدنيا بأبائهم ليتعارفوا، ودعاهم في الآخرة بأعمالهم
ليجازوا، فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا... ويا أيها الذين كفروا ١٤٦

وللصادق في تفسيره للقرآن آراء بلاغية ذات روعة، ومن ذلك
قوله: ان المراد من قوله تعالى: «ومن دخله كان آمناً» مَنْ دَخَلَهُ
فأمّنوه ١٤٧. ويريد الصادق - كما اصطاح أهل البلاغة بعدُ -
أنه خير خرج عن معناه الى الانشاء

وللصادق عليه السلام ذوق لغوي رفيع يَحْكُمُ به أصدق
الحكم وأنبهه على اتجاهات في نظام آيات القرآن وسرّ ترتيبه على
ذلك النظام. وانظر لتجد عجباً في بعض أحكام له أدركها من
سرّ تعاقب آيات الكتاب:

روى هشام بن سالم وأبان بن عثمان عن الصادق قال: عجبت
لمن خاف كيف لا يفرغ الى قوله سبحانه «حسبنا الله ونعم الوكيل»
فاني سمعت الله يقول بعقبها «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم

(١٤٥) الحراج للقرشي ص ١٣٤

(١٤٦) نور الأبصار ص ١٤٨

(١٤٧) مجمع البيان ج ٢ ص ٤٧٨

يمسهم سوء . عجبت لمن اغتمَّ كيف لا يفرغ الى قوله « لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين » فاني سمعت الله سبحانه يقول بعقبها « فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » وعجبت لمن مُكِرَ به كيف لا يفرغ الى قوله « وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد » فاني سمعت الله عز وجل يقول بعقبها « فوقاه الله سيئات ما مكروا » وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لا يفرغ الى قوله « ما شاء الله لا قوة الا بالله » فاني سمعت الله يقول بعقبها « فعسى ربي ان يؤتيني خيرا من جنتك » ١٤٨

وان لجعفر - عليه السلام - لرفاهية في ادراك معاني القرآن والجمع بينها ، وقد روي عنه في بعض ذلك انه قال : لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لا اعتدلا ، وهو يسند ادراكه في هذا الجمع لقوله سبحانه : « ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون » وقوله تعالى « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » ١٤٩ فكانت كأنها معادلة حسابية يتساوى فيها من يقنط من رحمة ربه بمن يأمن مكره ، وكلا القانط والآمن من المكر خاسرٌ ضال .

واكثر من الذوق الرفيع ورفاهة الحسّ كان جعفر مع القرآن

(١٤٨) مجمع البيان ج ٦ ص ٤٧٢

(١٤٩) مجمع البيان ج ٣ ص ٥٧

وجعفر يقول - ولم يقله أحدٌ غيره - : لقد تجلّى الله لعباده في كلامه
ولكن لا يبصرون ١٥٠

مسائل الفقه

ولا يستطيع احصاء مسائل جعفر في الفقه لانه مذهبٌ بكامله
ولم يندس جعفر في فقهه أن يعنى بوجوه معاش العباد ووجوه
إخراج الأموال ١٥١ وصلة الصدقات والخراج بالسلطان ١٥٢

بين الدين والدنيا

ونسبت الى جعفر بن محمد علوم اخرى لاهي في علوم الدين
خالصة ولاهي في علوم الدنيا ، لانها لم تُروَ ولم تتكشف ثابتة
الاصول كروايات الدين ، ولم تُعلم أصولها وتتكشف اسرارها
كعلوم الدنيا ، والقول في نسبتها الى الامام الصادق يحتاج الى روية
ونظر طويل .

تعبير الرؤيا

فروي عنه انه كان يؤوّل الرؤيا ، ولكننا - فيما قرأناه - لم

(١٥٠) الكشكول للبهائي ص ٦٢٥

(١٥١) اعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٠

(١٥٢) الاحكام السلطانية لابي يعلى ص ٢٣٦

تقف له الا على تأويل رؤيا واحدة أو لها لرجل ١٥٣ ، ولا يطمئن
القلب لهذا المثل الذي ضرب في تأويله للرؤى ، وان كان من غير
المستطاع ان يُنكر على مثل جعفر بن محمد أن يؤوّلها تأويلا صادقا .

الجفر

وهذا شيء لم يدع العلم بما فيه احد من الخلق دعوى ثابتة لا
تقلقل فيها ، ولكنهم قالوا انه وعاء ، وقالوا انه كتاب . والوعاء
او الكتاب من جلد فضيل من اولاد المعز انفصل عن امه حينما
صار له اربعة اشهر . ثم قالوا انه كان عند الصادق من وعاءين
احمر وابيض .

اما من قالوا انه كان وعاء فقد ملاؤه سلاحاً وكتباً ١٥٤ ،
واما من قالوا انه كان كتاباً فقد ادعى بعضهم انه ميراث علي بن
ابي طالب . وادعى بعضهم انه من صنع الصادق وحده بادىء ذي
بدء ١٥٥ ، وهؤلاء يقولون : كتب فيه الامام الصادق لاهل البيت

(١٥٣) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٢١ . وقص الدميري أن رجلا رأى في
يده عصفورا فقال له جعفر : تنال عشرة دنانير ، فر الرجل فوقه في يده تسعة
دنانير ، فأتخبر جعفرا فقال له : قص علي الرؤيا ثانية فقصها وزاد ان العصفور
لم يكن له ذنب فقال له جعفر : لو كان له ذنب لكانت الدنانير عشرة . والوضع
باد فيها وهناك بعض أخبار بالكشكول للبهائي عن تأويله للرؤيا .

(١٥٤) محمد بن الحنفية ص ٩٣ - دائرة المعارف للبستاني المجلد ٦ ص ٤٨٧

(١٥٥) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣

كل ما يحتاجون علمه الى يوم القيامة ، فكان الكتاب خاصاً
باهل البيت ، وكان العلم الذي يحتاجونه كله به ، وهي دعوى ذات
بال . وكان من الجلي ان أحداً من الناس لم يعرف أ كان قواعد
وكليات يُرجع اليها ام كان اجزاء وتفصيل . وكان كلاماً مفهوماً
واضحاً او رموزاً و اشارات ؟

وقد نسب بعضهم الى الصادق انه ذكر الجفر في بعض كلامه
وذكروا انه اوضح بعض ما فيه الى الخلف من اصحابه كسيد
الصيرفي والمفضل بن عمر وأبان بن تغلب ، وكان ذلك ذات يوم
دخلوا عليه فيه وجلسوا عنده ١٥٦ وكان عند جعفر ما يدعوه الى
ان يوضح لهم ما عنده في الجفر ، وقد مال هذا القول الى انه قواعد
وكليات او رموز تدل على امور .

وقالوا ان الجفر ظل يتوارثه اصحاب الحق فيه حتى صار الى
بني عبد المؤمن بمغرب افريقية ١٥٧ . وكذلك صار الجفر وهو غائب
عن الناس علماً كأنه كأن حي ، ولم تحتف بذكره والاهتمام به
العامة دون الخاصة ، وقد سمعت من العامة منه حكايات ونبوءات ،
ثم ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب ، وأبو العلاء في اللزوميات ،

(١٥٦) محمد بن الحنفية ص ٩٦

(١٥٧) مطالب السؤل ص ٥٦ - الفصول المهمة ص ٢٠٥

وابن خلدون في المقدمة . اما العامة فتسيل في ذكره سيلاً .

وإذا صح ان الصادق قد دون به حقائق فان ورثته من بني عبد المؤمن لم ينتفعوا بها ، وقد جهلوا ان يعرفوا سرها لو اطلعوا عليها ، او انه ذاع عنهم انهم ورثوا الجفر ولم يرثوا قط كتابا به اسرار الدنيا الى ان تزول .

وان في ذلك لعجبا ! لأن اهل البيت - وهم المؤدبون بأدب النبوة - مأمورون الا يكتموا العلم عن الناس متى كان نافعاً ، فاذا كان ذلك خصيصاً لأهل البيت ، فما للناس والكلام فيما ليس لهم شأن فيه ، ولا سيما اذا صح القول بانه لن يعلم حقيقة هذا الكتاب الا المهدي المنتظر خروجه عندهم في آخر الزمان ١٥٨

والرأي الصريح ان كل ذلك يحتاج الى تأمل وحسن تقدير ، فان هذا الكتاب او تلك الآثار في الوعاء من سلاح وكتب لو كانت كائنة بالجفرين ما كانت منها شيء ينفع الناس ، فأحكام التوراة والانجيل لغير المسلمين ، وليس لهم ان يأخذوا بها الا ما كان مصدقاً بين يدي الرسول الكريم من القرآن ، ولم يبق في سلاح النبي وعصا موسى من قوة ، لان محمداً لا يحمله ، وعصا موسى لا تفعل المعجزات مهما القيت . وكان الله يصنعها وهي في يد الكليم

(١٥٨) الامام علي ص ٣٢٠

ومع ذلك كله فلم تكن عصا موسى دائماً تصنع المعجزات ، وإنما هي تشارك مع العصي الأخرى في خصائصها ومنافعها الدنيا ، كان يهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى .

ولكن ذلك كله لا يمنعنا من التصديق بما قيل عن مواريث من صحف النبي وثياب وسلاح ، وانها صارت الى الحسين ثم اودعها ام سلمة ، فأخذها زين العابدين ، ثم توارثها الأئمة حتى صارت الى الصادق ثم الى اولاده من بعده ، وذلك كله غير ذلك الجفر المذكور .

الجامعة

والكلام عن كتاب الجامعة المنسوب الى علي كرم الله وجهه شبيه بما قيل عن كتاب الجفر ، ولم نتحقق عنه اخبار .

كتب شتى ١٥٩

وقد نسبوا الى الصادق كتباً لم يذكرها الثقات عنه ، وإنما حملت اسمه من بعده دساً عليه ١٦٠ ، ومن بين هذه الكتب كتاب « اختلاج الاعضاء » ١٦١ وقيل إنه مكذوب عليه ، اما

(١٥٩) انظر مؤلفات الصادق المنسوبة اليه بأعيان الشيعة ج ٤ القسم

الثاني ص ١٧٦

(١٦٠) دائرة المعارف الاسلامية المجلد ٦ العدد ١١ ص ٤٧٣

(١٦١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٠٥

كتاب «الاهليلجة» ١٦٢ فهو برواية المفضل بن عمر تلميذ الصادق
وقد قال صاحب اعيان الشيعة انه موجود ضمن كتاب «البحار»
وقال في مقدمة البحار : ان سياقهما - والضمير الى كتابي الاهليلجة
والى توحيد المفضل - يدل على صحتهما ١٦٣

واما كتاب «توحيد المفضل» - ويقال انه رسالة من
الصادق للمفضل بن عمر حين اعلمه ان اقواماً ظهرُوا من اهل هذه
الملة يجحدون الربوبية ويجادلون على ذلك ويسأله ان يرد عليهم
فيما ادَّعوا ١٦٤ - فقد نشر في العراق حديثاً ، ويقول صاحب
اعيان الشيعة انه مذكور بتمامه في كتاب بحار الانوار ، ولكن
«راغب الطباخ» احد شيوخ السنة في حلب أصدره باسم كتاب
«الخلق والاعتبار» ونسبه للجاحظ ، وهو عينه كتاب توحيد
المفضل لولا تقديم وتأخير وحذف واطافة بما يستقيم في «توحيد
المفضل» بأنه للصادق ، وما يستقيم في «الخلق والاعتبار» بأنه
للجاحظ .

وهذه القصة كفيلة ان تضيء امامنا نوراً فيما نسب الى الصادق
والى الجاحظ حين نوليها كل العناية ، وحتى اليوم لم يُقدَّر لي ان

(١٦٢) الاحاد في الاسلام ص ١٥٦

(١٦٣) اعيان الشيعة ج : القسم الثاني ص ١٧٧

(١٦٤) انظر توحيد المفضل وكتاب الاهليلجة

أصير الى رأي خالص في الكتاب ، فانه ليبدو أن كتاب « توحيد
المفضل » الذي هو « الخلق والاعتبار » نسب الى الصادق لانه
يسلك سبيله لبيان اسرار الخلق ، وهو طريق اشتهر به جعفر ، فانه
حين كان يُسأل عن شيء يسرع الى بيان سرّه والحكمة منه ، كما
سئل عن سر تحريم الربا فقال : لئلا يمتنع الناس المعروف ، وكما
سئل عن سر خلق الذباب فقال : ليذل به الجبارة .

وكذلك يبدو من نظام الكتاب ودقة ترتيبه وابوابه ونسبة
كثير من مسأله الى الاطباء والفلاسفة ورجال العلم انه أليق بالجاحظ
والطبعة التي تنسبه الى الجاحظ تهتم بهذه الاسانيد ، ولكن الطبعة
التي تنسبه الى الصادق تمحوها ١٦٥

والصادق كان يعرف مسائل كثيرة من الطب والكيمياء والعلم ،
ولكن رجلاً كالطبرسي صاحب مجمع البيان ذكر كثيراً من المسائل
المتفرقة التي سألها المفضل بن عمر استاذ الصادق ، وليس فيها شيء
مما في هذا الكتاب .

وقد ذكر ياقوت كتاب « التفكير والاعتبار » في عداد كتب
الجاحظ في معجم الادباء ١٦٦ وذكره السندوبي في عداد كتب

(١٦٥) وذكر صاحب أعيان الشيعة انه طبع منسوباً الى الصادق مرة بمصر
وأخرى باستانبول ولكنه قال : ولم أره - أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٧٧
(١٦٦) معجم الادباء ج ١٦ ص ١٠٨

الجاحظ ولكنه اضطرب فأثبتته مرة وعاد فأنكره ١٦٧

علم الغيب

وينسبون الى الصادق انه أخبر عن علم اهل البيت بأنه علم ما كان وما يكون ، وأنه نكّت في القلوب وقرّ في الاسماع . وينسبون اليه انه فسّر النكت في القلوب بالالهام ، والنقر في الاسماع بأصوات الملائكة ، وفرّق ما بينهم وبين الانبياء انهم لا يرون اعيان الملائكة بعيونهم .

والناس - ومنهم الشيعة - مختلفون في بعض ما نسب الى الصادق من هذا الكلام ، فقوم يصدقون ، وقوم يرون في ذلك جراءة على الصادق ويقولون انهم بالغوا في نسبة ذلك اليه ، والحق الذي يقال : ان التعبير عن العلم بأنه نكت في القلوب كلام ليس به من بأس ، وهو أشبه بكلام علماء النفس عن مواقع دقائق المعلومات

(١٦٧) ذكره السندي في عداد كتب الجاحظ تحت رقم ٤٧ بالصفحة ١٢٨ من كتابه أدب الجاحظ ، ولكنه عاد في صفحة ١٥٣ من الكتاب نفسه فذكره تحت رقم ٥ في عداد الكتب التي نسبت للجاحظ وليست له ، وقال : عثر به محمد راجب الطباخ الحلبي وطبعه منسوبا الى الجاحظ سنة ١٩٢٨ ثم قال : ولعله للبحارث بن أسد المحاسي أحد أفاضل الزهاد . وليس في أخبار المحاسي ما يدل على ذلك . فلم لا يكون كتاب التفكير والاعتبار الذي اثبتته السندي للجاحظ هو نفسه كتاب الدلائل والاعتبار الذي نفاه عنه والسندي يعترف بعدوان النساخ على العناوين وتغييرها ؟

وانشائها أغواراً في مخ الانسان ، وما من شك في ان هناك استعداداً
وقبولاً في بعض الناس اكثر من بعض . والعلم الذي يصل اليك في
يسر وتحسه كأنما جاءك همساً أو وقوعاً مرة واحدة في القلب فلا
بأس عليك من ان تسميه إلهاماً . وليست خواطر الشاعر والاديب
وهدايات العالم والمخترع الا إلهامات تدق صدورهم ورؤوسهم وتنب
اليها وثباً . فمن ذا الذي يجروء على ان يعترف بها لأصحاب هبات
شقي وينكرها على اهل البيت وهم صفوة الناس احساساً وصفاء
وقرباً من السماء ؟ اما الذي اختلف عليه الناس احساساً وصفاء
الملائكة التي يسمعونها ، فما الذي يمنع ان يجعلوه من طريق
المجاز ؟ وعند المجاز تحل العضلات ١٦٨

وكيف ينكر ذلك وأحاديث الذي تخبرنا عن مقارنة الملائكة
لاهل العلم من الناس ، فكيف بأهله من اهل البيت ؟ عن ابي هريرة
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما اجتمع قوم في بيت
من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت
عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكروهم الله

(١٦٨) لقد دعا ذلك الى التقول فقال صاحب الروض الباسم من الزيدية :
ان شرط الامام ان يكون يعلم الغيب ، انظر الروض الباسم ج ٢ ص ٩ - وقال
ابن الجوزي : ان الامامية قالوا ان الامام يعلمه جبريل فاذا مات بدل مكانه
غيره - انظر نقد العلم والعلماء ص ٢٢

فيمين عنده « وقال صلى الله عليه وسلم « ارجعوا طالب العلم فانه
مكدود البدن ، ولولا انه يعجب بنفسه لصافحته الملائكة عيانا »
وامثال ذلك كثير .

وكيف يُجْرَوُ على النكران ، وديكارت ابو المدرسة العقلية
كان يدعي ان اسلوبه المنطقي الذي اخرجه من الشك الى اليقين
كان لهما من الله الهمة اياه ؟

•
وللصادق امور هي انباءٌ بما يحدث ، وقد امتد بين انبائه
بالحوادث ووقوعها - احيانا - امد طويل ، وأحيانا لم يمر امد ،
وكان من بينها ما له مقدمات ، ومن بينها ما ليس له . وكان مما له
مقدمة انبأوه بأن ابا جعفر المنصور صاحب القباء الاصفر سبلي
الخلافة ، وكان مما ليست له مقدمة - كما يبدو - هذا الخبر :

حدث النضر بن قرواش قال : أكرمت جعفر بن محمد من
المدينة الى مكة ، فلما ارتحلنا من بطن مرّ قال لي : اذا انتهيت الى
فخّ فأعلمني ، قلت : اولست تعرفه ؟ قال : بلى ، ولكنني اخشى
ان تغلبي عيني ! فلما انتهينا الى فخ دنوت من الحبل فاذا هو نائم
فتنحنحت فلم ينتبه ، فحركت الحبل فجلس ، فقلت : قد بلغت ،
فقال : أحلّ محملي ، فحلته ، ثم قال : صلّ القطار فوصلته

ثم تنحيت به عن الجادة فأنخت بعيره فقال : ناولني الاداوة
والركوة ، فتوضأ وصلى ، ثم ركب ، فقلت له : جعلت فداك !
رأيتك قد صنعت شيئا ، أهو من مناسك الحج ؟ قال : لا ، ولكن
يقتل ها هنا رجل من أهل بيتي في عصابة تسبق أرواحهم
اجسادهم الى الجنة ١٦٩ ثم كان أن قُتل في هذا المكان عينه
الحسين بن علي بن الحسن . وهذا الخبر رواية فرد ولم يشع كما شاع
خير صاحب القباء الاصفر .

وكان للصادق أمور آخر توقع في بعضها جزاء الله العاجل
فوقع ، ودفع في بعضها عن نفسه غضب السلطان فدفعه الله عنه .
ومن الأول أن رجلا اتهمه عند المنصور بأن أموال العراق تجي
اليه بلا سوط ولا عصا ، فأحضر هذا الشاكي بين يدي المنصور
في حضرة الصادق ، فقال له الصادق : أحق ما رفعت الى أمير
المؤمنين ؟ قال : نعم ، قال الصادق : فاستحلفه يا أمير المؤمنين ،
فاستحلفه المنصور ، فبدأ الرجل يقسم يمين يذكر فيها الله ورحمته
ويتمرغ في صفاته العلية ويمجده بها فقال له الصادق ليس هكذا لأن
الرجل اذا مجّد الله في يمينه أمهله بالعقوبة ، ولكن قل : أنا بري من
الله ، والله بريء مني ، وأنا خارج من حول الله وقوته راجع الى حول

(١٦٩) مقاتل الطالبين ص ٣٧ ؛

نفسى وقوتها . فحلف الرجل ، فوقع ميتا .

وقد راع ذلك أبا جعفر المنصور فقال للصادق : انصرف يا أبا عبد الله ، فلست أسألك بعدها عن شيء ١٧٠ . وهذا الحادث يقع لغير الصادق ، لعوامل ودوافع من هيبة الموقف ورعب الضمير ، وليس أكبر اثما من أن يحلف حالف كذبا بين يدي خليفة وامام ، هذا ابن رسول الله وذاك ابن عم رسول الله .

ومن الذي دفع به الصادق عن نفسه ما كان يدعو به الصادق في سره فيرد عنه البغي والشر ، وقد قيل انه حين دخل على المنصور بباخمرًا كان يحرك شفثيه بدعاء ، فقيل له في ذلك فقال : كنت أقول : اللهم بك أستفتح ، وبك أستنجح ، وبنيك محمد أتوجه ، وأعوذ بخيرك من شرك ، اللهم سهل لي حزونه وكل حزنه ، وذلل لي صعوبته وكل صعوبة ، وأعطني من الخير أكثر مما أرجو ، واكفني من الشر أكثر مما أخاف وأحذر ، فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ١٧١

(١٧٠) الف باج ١ ص ٤٨٥

(١٧١) نزهة المجلس ج ٢ ص ٣٧ - الف باص ٤٨٥

أدب الصادق

أما أدب الصادق فله فيه فصول من الكلام هي الحكمة وهي فصل الخطاب ، وانه ليوجز في ابلاغ حتى تصلح كل كلمة منه لان تكون أثرا : أعظمُ بنعمة في مصيبة جلبت أجرا ، وأفزعُ بمصيبة في نعمة اكسبت كفرا ! ما كلُّ من رأى شيئا قدر عليه ولا كل من قدر على شيء وفق له ولا كل من وفق أصاب له موضعا ، فاذا اجتمعت النية والقدرة والتوفيق والاصابة فهناك السعادة . ان للامور بغتات فكن على حذر . اياك ومرتقى جبل سهل اذا كان المنحدر وعرا .

ولقد كان جعفر من اهدى الرجال اقتداء بالقرآن في بلاغته واهتمامه بأسلوبه الحكيم ، وقد وقع الذباب على وجه المنصور فدفعه عنه ، فعاد فدفعه حتى اضجره ، فدخل جعفر بن محمد فقال له المنصور : أبا عبدالله ، لم خلق الله - عز وجل - الذباب ؟ قال جعفر : ليذل به الجبارة .

وكان جعفر يرى الاستدلال على أصالة الرأي بحسن الالتقاء اذا كان الرجل متكلمًا ، وبحسن الاستماع اذا كان سائلا ، وبحسن الجواب اذا كان مسئولا . وقد سئل ما البلاغة فقال : من عرف شيئا قل كلامه فيه ، وانما سمى البليغ بليغا لأنه يبلغ حاجته بأهون

حرية الأدب

ولم يغض جعفر بصره عن حركة الأدب حوله ، فكان خبيراً
 عالماً بالشعراء ، شديد التأثير بكلامهم وحركتهم ، وكان هيوماً
 لهم وبهم محتفياً ، ولا سيما شعراء زمانه الذين طلبوا الدنيا من أيدي
 ملوكها ، وقد رأى مسألتهم أفضل من ملاحاتهم ، لأنهم سرعان
 ما يخوضون في الباطل ، وكان يقول : اياكم وملاحاة الشعراء فانهم
 يضمنون بالمدح ويجودون بالهجاء ١٧٣

وفيما بين ذلك يُفهم ان جعفر بن محمد اخذ بيد الشعراء
 وناصر الأدب ، لأنه أخاف الناس من الشعراء وهجاءهم ، وثبتت
 كيانتهم ، ولم يناد بكم أنفاس الشعر واغلاق منافذ الحرية
 على الأدباء .

السيد والكميت

حدث محمد بن سهل قال : دخلتُ مع الكميت على جعفر
 الصادق في أيام التشريق فقال : جعلتُ فداك ! ألا انشدك ؟ فقال

(١٧٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٣ - أعيان الشيعة ج ٤ ق ٢ ص ١٩٧ ،

١٨٩ ، ١٩٣ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٦

(١٧٣) الفصول المهمة ص ٢١٠

جعفر : انها أيام عظام ! قال : إنها فيكم ، قال : هات ، فانشد
الكميت قصيدته التي اولها :

أهل عم في رأيه متأملٌ	وهل مدبر بعد الاساءة مقبلٌ
وهل أمة مستيقظون لدينهم	فيكشف عنه النعسة المتزمل
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى	مساويهم لو أن ذا الميل يعدل
وعطّلت الأحكام حتى كأننا	على ملة غير التي نتحل
كلام النبيين الهداة كلامنا	وأفعال أهل الجاهلية نفل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها	على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها	لنا جنة مما نخاف ومعقل

فكثر البكاء وارتفعت الاصوات ، فلما مرّ على قوله في الحسين
عليه السلام :

كأن حسينا والبهاليل حوله	لأسيافهم ما يختلي المتقبل
وغاب نبي الله عنهم وفقده	على الناس رزء ما هناك مجمل
فلم أر مخذولا لأجل مصيبة	وأوجب منه نصرة حين يُخذل

فرفع جعفر يديه وقال : اللهم اغفر للكميت ما قدّم وما أخر ،
وما أسرّ وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى ! ثم اعطاه الف دينار
وكسوة ، فقال له الكميت : والله ما احببتكم للدين ، ولو اردتها

لأتيت من هي في يديه ، ولكنني أحببتكم للآخرة . فأما الشباب
 التي أصابت أجسادكم فاني أقبلها لبركتها ، وأما المال فلا أقبله ١٧٤
 اما السيد الحميري فقد لقي جعفرًا الصادق بشعرٍ نازل عن طبقة
 السيد الحميري ، وقد قيل انه منحول عليه ، ولكن لعله قاله ارتجالاً
 فنزل به عن طبقة الشعربة . ومطلع قصيدته كما ذكرها ابو الفرج :
 تجعفرت باسم الله والله اكبر وأيقنت ان الله يعفو ويعفو
 ولم يكن السيد الحميري في استقامة الكمية ولا تحمسه ووفائه ،
 فقد ذهب يمدح أبا جعفر المنصور بعدها ، ولكن الصادق غفر
 للحميري ذلك واخطاء اخرى علم بها الناس من سيرته ، وقالوا ان
 جعفر بن محمد ذكر السيد بعد موته فترحم عليه وقال : ان زلت به
 قدم فقد تثبتت الاخرى ١٧٥

صناعة الدعاء

وان صناعة الدعاء والروحة اليه في الضيق والسعة طريق في
 مذهب المسألة الظاهرية والثورة السلبية ، ذلك عند الضيق. اما عند
 السعة فهو اندفاع نحو الشكر الذي هو خلق الأوفياء . ولم يكن احد

(١٧٤) خزنة الأدب للبغدادى ج ١ ص ١٤٠ - التطور في الشعر
 الأموي ص ٢٤٨ وقد اشار شوقي ضيف الى نقل الخبر عن الخزنة والاعاني
 ولكن الاعاني يقول ان لقاء الكمية كان للباقر وليس للصادق فليراجع .

(١٧٥) الاعاني ج ٧ ص ١٥٠ ، ٥

أقدر على هذه الصناعة من اهل البيت ، وقد أعانتهم مقدرتهم
البلاغية على إثارة النفوس والهلب مشاعرهما . والدعاء تعبير عما في
النفس من ادراك لطيف ، فالتعبير به يريح النفس ويهدئها كأنه
الأنعام التي تعبّر عن النسب المُدرّكة للالخان بين الضلوع .

وللصادق أدعية كثيرة طويلة وقصيرة ، وهو يقول في دعاء له :
اللهم لك الحمد ان اطعتك ولك الحجّة ان عصيتك ، لا صنع لي
ولا لغيري في احسان ، ولا حجة لي ولا لغيري في اساءة ^{١٧٦} . فليُنظر
الى مثل هذا الدعاء الذي ينسب الطاعة لفضل الله ويستوجب العقاب
على المعصية ، ويمحو الكبر والزهد عند الصنيع والاحسان ، ولا يقبل
حجة ولا دفاعا في اساءة . ليس هذا تأصيلا لنظام حكم صالح ،
ورسما لطريق واضح ، من حيث كان كلاما منظوما في دعاء ؟

وأية ضراعة لله أخشع من رجاء عفوّه لأنه أهل للعفو في دعاء
جعفر حين قال : اللهم انك بما انت اهل له من العفو أولى بما أنا
أهل له من العقوبة ^{١٧٧}

إجابة الدعوة

واستجابة الدعوة شيء ليس من عمل انسان أصغر ولا اكبر ،
ولكنه عمل الله ، وامرهما متعلق بمشيئته وحده ، وقد وافقت مشيئة

(١٧٦) الملل والنحل ج ١ ص ٩٥

(١٧٧) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٤

الله دعوة جعفر بن محمد مرات فبحققت دعوته ، فليس يقال الا ان ذلك من فضل الله !

ومثل جعفر يُتَقَى ، مخافة ان يكون ملهم الشعور بتحقيق ما يتجه اليه بظنه وتجمع مشاعره . ومشيئة الله وقدره لا يعرف متى تفد وتنزل ، وقد توافق التلمية زمن دعاء من انسان فتتحول انظار الناس الى الظاهر دون الخفي والى السبب الرابط دون السبب الخالق .

وقد قالوا : كان جعفر بن محمد لا يسأل الله شيئاً الا اجابه من قريب ١٧٨ . وهو قول مطلق ، وكأني بالحق ان يقال : لقد سأل جعفر بن محمد ربه وكثيراً ما اجابه من قريب ، وانما اقول ذلك - لا نقصا من مكانة جعفر عند ربه ولا رفعا من نفوسنا فأين نحن منه - ولكن مخافة ان يظن الجهلاء أن المشيئة تتعلق بألفاظ الدعاء !

وكم من دعاء قاله جعفر يناجي به ربه فأنقذه مما يخاف ، ولقد كان له دعاء عن جده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل شيخ في بلاد السند كان يحدث صاحبه به ، نقله اليهم احد رجال الاسكندرية لأن الله انقذ به راويه جعفر بن محمد من امر عظيم ١٧٩

(١٧٨) اسعاف الراغبين ص ٢٢٧

(١٧٩) الف باء ج ١ ص ٤٨٥

الرأى والدين

القرآن

وكم بالقرآن من معجزات ! وان من معجزاته علمه ان الناس سيسيلون في الكلام بالقدر سيل الماء او سيل البحر فيقول الله تعالى : « ان الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا » ، وسد عليهم القرآن السبيل وأعد لكل ملحد جوابا .

وما من ريب ان هذه قدرة خارقة من معجزات الكتاب ، فما يكاد الريب يدخل قلبا حتى يدفعه عنه القرآن دفعا ، وما يكاد يظن ظان انه استغنى عنه الا جذبه اليه وحاجه وأخضعه !

وجاء القرآن وهو يعلم انه لن يخوض في الباطل اكثر من جاءهم العلم لتدريتهم على ابداع البدعة واصطناع الهوى فقال تعالى : « وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » وقال « فلما جاءتهم رسالهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » فأعد لهم المعجزة

لافحامهم وقال : « ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل وكان
الانسان اكثر شيء جدلا » وقال « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن
من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان انتم الا
الا مبطلون ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » ١٨٠

وكان القرآن يعلم ان الناس سيمحرفون الكلم عن مواضعه
ويلوون آسنتهم به لئلا . كان القرآن يعلم كل ذلك فأعد لكل
سؤال جوابا ، وتمت به المعجزة ، وكم بالقرآن من معجزات !

وكان رسول الله واصحابه يعلمون ما في القرآن من معجزات
فخافوا ان يُهمَل القرآن فيخفى على الناس ادراك معجزه ثم لا
يجدون شفاء لصدورهم ان لم يلجؤوا اليه يوم يُخاض في الضلالات
خوضا ، فحث الرسول على حفظه ومداومة النظر فيه ، و اشار الى
صعوبته وشدة تفصمه وفراره من الصدور ان لم يُرْع بالحفظ
ويداوم عليه

فعن ابي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد
تقلتا من صدور الرجال من الابل من عُقْلها ١٨١

(١٨٠) سورة فصلت والشورى وغافر والكهف والروم .

(١٨١) تيسير الوصول ج ١ ص ٢٠٢

وعرف اصحاب النبي ذلك فاقبلوا عليه إقبال المهيم يحفظونه
ويعبونه في صدورهم ويبحثون احكامه واسراره . وكان القرآن
قد اوصى بيوت النبي ان تقرّ نساؤه فيهن ليذكرن ما يتلى عليهن
من آيات الله والحكمة فقررن وقرّ بناتهن ، وصارت الروحة الى
القرآن من كل رجل وكل امرأة من اهل البيت فريضة كالجهاد .

ثم لم يلبث الزمن ان حقق معجزة القرآن وظنّ الرسول
فخاض الناس في الباطل ، وسال الناس في الكلام بالقدر ، وكثير
منهم كانوا دخلاء في العربية فعجزوا عن الالمام بالحديث والقرآن ،
وانّ فيها لامورا جساما تحتاج الى تفكير طويل ممن يعرف العربية
فكيف بمن هم من الدخلاء ! والقرآن ثقيل الصعوبة حتى على
الراسخين في العلم ، ولقد لام عمر بن الخطاب من أعييتهم الاحاديث
أن يعوها ، فكيف بالقرآن وهو أشد فراراً من الصدور وتفصماً !
وتنازع الصحابة في كثير من مسائل الاحكام ، ولكنهم لم
يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الاسماء والصفات والافعال ،
ومع ان اصحاب النبي كانوا يزيدون على مائة الف ، وروى انهم
بلغوا مائة الف واربعة عشر الفا - فانهم رأوا وفي مقدمتهم عمر بن
الخطاب ان اصحاب الرأي اعداء السنن ، أعييتهم الأحاديث ان يعوها

وتفليت منهم ان يحفظوها ، فقالوا في الدين برأيهم فضلوا وأضلوا
ولقد عجز عمرو بن عبيد عن احصاء الكبائر لانه لم يكن
أحصى القرآن ، فرجع الى جعفر فاخبره انها الشرك والياس من رَوْح
الله والأمن من مكروه وعقوق الوالدين وقتل النفس وقذفُ الحصنات
واكل مال اليتيم ظلما والفرار من الزحفوا كل الربا ثم الزنا واليمين
الغموس والغلول ومنع الزكاة المفروضة وشهادة الزور وكتان
الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة عمدا ونقض العهد وقطيعة الرحم .
وقد فصلها جعفر لعمرو واحدة واحدة واورده ما نزل من القرآن
فيها وانها كلها مستوجبة غضب الله وعقابه . فخرج عمرو له صراخ
من بكائه وهو يقول : هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم !
ولقد عجز كثير من الناس عن فهم مدلولات الكلام ، اهو
حقيقة ام هو مجاز ؟ اللهم الا من نهم من الموالي في العلم فسدده
الله ، حتى انهم ليقولون ان عمرو بن عبيد صاحب واصل بن عطاء
لم يكن في اول امره يفرق بين الوعد والوعيد حتى افهمه اياه أبو عمرو
ابن العلاء ١٨٢ . ولقد اخبروا عن عطاء بن ابي رباح - وقد كان
فقيه الحجاز غير مدافع - أنه كان تواقا الى الاستزادة من العربية ،
فلعلّه فاتته شيء ، وقد حدثوا عنه انه كان يقول : وددتُ اني

(١٨٢) مجمع البيان ج ٣ ص ٩٣

أحسِن العربية ! - وكان يومئذ قد بلغ التسعين ١٨٣

وقد لجأ من يريد النجاة الى القرآن يلتمس منه جوابا ، ووقف
حَفَظَةَ القرآن من اهل البيت ومن غيرهم يصدون التيار . وكان
التيار عنيفا قويا في الشام والعراق ، ثم امتدت امواجه وصواخبه الى
الحجاز ، ولكنه لم يجد في الحجاز مجازا ، اذ وقفت المدينة كلها تصدّه
عنها ، ووقف جعفر بن محمد حصنا حصينا يرد التيار في قوة عارمة
تخطم امواجه . وكان مع جعفر كل العدة وكل القوة ، وكانت معه
المعجزة : كان معه القرآن .

الصانع الاول

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى ان يفكر المؤمنون
في ذات الله لتلا يهلكوا ، وأباح لهم ان يفكروا في خلقه ليعرفوه
من قدرته ، اما الوصول الى حقيقته وذاته ففي ذلك هلكة العقول
دون الوصول .

وما لبث الناس حين مات رسول الله ان انبعثوا يبحثون عن
ذات الله ليدركوها ، ووفد سائل الى علي بن أبي طالب يسأله قائلا:
أين كان ربنا قبل ان يخلق السموات والارض؟ فقال له عليّ : «أين»

(١٨٣) الف باء ج ١ ص ١٩

سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان ١٨٤ . ووفد الى علي سائل
آخر يقول له : أين الله ؟ فقال علي : الذي أين الأين لا يقال فيه
أين . فبيّن علي لسائله فساد سؤاله بان الأينية مخلوقة ، وكان سبحانه
وتعالى قبلها ١٨٥

لا يستطيع ادراك ذات الله مهما حاولت العقول . وفي نفس
الطريق التي سلكها علي في البيان عن ذات الله سلك جعفر بن محمد
فقال : من زعم ان الله تعالى في شيء أو من شيء أو على شيء فقد
أشرك ، لأنه لو كان على شيء لكان محمولا ولو كان في شيء لكان
محصوراً ، ولو كان من شيء لكان مُحدّثاً ، والله يتعالى عن
جميع ذلك ١٨٦ .

ولم تكن هذه أسلم الطرق وحسب ، ولكنه لا طريق غيرها .
وان لم يكن فن هو الذي ادرك كنهه الله ؟ ان معرفة كنهه تعالى
شيء وراء طور العقول وقوتها ، وهو امر لا يستقل العقل بادراكه
من طريق الفكر وترتيب المقدمات ، وانما يُدرك بنور النبوة وولاية
المتابعة ، وهو اختصاص الهيّ يختص به الانبياء وأهل وراثتهم مع

(١٨٤) الكامل للمبرد ج ١ ص ٥٩

(١٨٥) الف باج ١ ص ٢٠١

(١٨٦) الانصاف ص ٣٧ - الف باج ١ ص ٢٠٢

حسن المتابعة وتصفية القلب من وَضْر البِدَع وتنقية الفكر من
نزعات التفلسف .

والسلف يرونَ العلة لذلك انه لو كانت العقول مستقلة بمعرفة
الحق واحكامه لكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل
وانزال الكتب ، ولكن الله تعالى قال : « وما كنا معذبين حتى
نبعث رسولا » وأشباه هذه من الآيات ١٨٧

وان الاسلام لم يرهب العقل بذلك ولكنه رحمه من ان يرضى
ودعاه ألا يأرق بالمحاولة في غير طائل . وقد جرب العقل ان يجري
على شططه فلم يصل ، ووقف كثير من الفلاسفة بعد جهد المشوار
يمسحون سطور تجار بهم ويضحكون من انفسهم في حسرة على
الزمن الذي اضاعوه تحت اعباء التفكير المضي ، من حيث لم يرثوا
غير الافلاس . وفرق ما بين الانبياء والفلاسفة ان اولئك جاءوا
ليبعثوا الطمأنينة في النفوس ويرحموا العقول ان تضنى من الضلالة
اما هؤلاء فجاءوا ليثيروا العقول حتى تخوض مضطرباً قد تصل بعده
الى الطمأنينة أو الى قاتق لا يزول .

وراء دعوة الاسلام وقف جعفر بن محمد للفتن الناشئة حوله

(١٨٧) لوائح الانوار ص ٨٩

- قريبا منه وبعيدا عنه - حربا عوانا يحشد لها القوة مع القوة ، وينفذُ اليها ذكاء في اثر ذكاء ، فقد كان الالحاد آخذا في غزو العقول ، والكلام يُجرُّ بعضُه بعضا حتى يجرَّ الى الكلام في ذات الله ، وقد رأى جعفر ذلك فاضطرب له واخذ يزوف الناس عن الخوض والتوغل سالكا بالناس موارد الفطرة ، اذ لا رجاء في شيء من وراء الايغال فيما لا يمكن ان يُدرك ، فصرخ فيهم قائلا : ان الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا في الله فاذا سمعتم ذلك قولوا : لا اله الا الله الواحد الذي ليس كمثلته شيء ^{١٨٨}

الرأي السابق

وماذا كان يجول في خاطر ابن المقفع وصاحبه ابن أبي العوّاج وهما ينظران الى الناس يطوفون حول البيت جماعة جماعة ؟ كان يجول في خواطرهما ان هؤلاء الناس ليسوا الا قطعانا تطوف حول البيت وتؤدي الفريضة عند المشاعر في جهل وغباوة . وامتد نظر ابن المقفع فرأى شيخاً جالسا في البيت وقد تخشع وأرسل فكره ، فأثر في قلب كل من التفت اليه ، فقال ابن المقفع لصاحبه : لا واحد من هؤلاء يستحق اسم انسان الا هذا الشيخ الجالس - وأشار الى

(١٨٨) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ١٥٠

جعفر - أما غيره فرعاع وبهائم !

ولم يأخذ ابن أبي العوجاء برأي ابن المقفع حتى يمتحن ذلك
الانسان المتخشح ويقف منه على علم وفقه ، فاذا لم يكن منه علم
وقفه حُشِر في زمرة الناس . وتقدم ابن ابي العوجاء من جعفر
وسأله ، فأجاب جعفر . وما زال هذا السائل يصغر وهذا المسؤول
يكبر حتى صدقت في نفس ابن أبي العوجاء نظرة ابن المقفع من
انه لا واحد يستحق اسم الانسان غير جعفر بن محمد .

قال ابن أبي العوجاء : ما منع الله من الظهور لجميع خلقه
ودعوتهم الى عبادته حتى لا يصبح اثنان منهم على خلاف ؟ لماذا
اختفى عنهم وأرسل اليهم رسلا ؟ لو كان قد ظهر بذاته لهم لكان
ذلك اسهل الى الاعتقاد به !

فأجاب جعفر : كيف اختفى عنك من اظهر قدرته في نفسك
أنت وفي نمائك ؟ . وكان جواب جعفر جوابا موجزا ، ولكنه كان
واضحا مفجحا بليغا . وما زال به جعفر يوضح له ويفحمه حتى قام
عنه ابن أبي العوجاء يقص للناس خبره ويقول : وظل يحصي لي
قدرة الله التي في نفسي ، والتي لم أستطع رفضها حتى ظننت ان
الله قد نزل بييني وبينه ١٨٩

(١٨٩) الاحاد في الاسلام ص ٦٩

وجرى ذلك قديما ايام جعفر بن محمد ، ثم جاء الزمن بعده
بفلسفات كثيرة ، ولم تزل كلها واقفة دون أن تصل الى كنه الله
تعالى ، حتى انهم ليقولون ان « هربرت سينسر » قال : ان النظر
في أصل الوجود كفرٌ بالاله ، وانه لمن الميسور للمرء أن يدون اشعارا
كثيرة في كفر المتقين ١٩٠ . وما يريد « سينسر » بالمتقين الا
اولئك الذين يحاولون معرفة حقيقة الصانع الازلي القديم

واقدمُ عدَّ موقف جعفر بن محمد من هذه المسألة جهادا عظيما
لاقرار الفكرة الاسلامية في الصانع الاول . حقا انها سُبقت
بأحاديث من رسول الله وكلمات من علي بن ابي طالب واصحاب
النبي والتابعين ممن اشتغلوا بالعلم ، ولكنها لم تخض الحرب التي شنها
جعفر بن محمد بمداومته الكلام فيها واقامة الحجج عليها .

انه من الحق ان يقال ان هذه القضية قد سبق اليها جعفر بن
محمد ، او كان في اول السابقين . وقد سبق اليها فصاغها في حجة
مبسورة قريية واسلوب صاف سهل يسيعه ويقبله كل من سلم فهمه
ولم يعاند . وقد تعرض لها من بعده متكلمو المسلمين والفلاسفة
منهم ومن غيرهم ، ومنهم من اعادها الى مثل رأي الصادق في يسر
وصفاء ، ومنهم من عقدها وفرَّع منها لتنسب الفكرة اليه .

(١٩٠) مذكرات في تاريخ الفلسفة القسم الثاني ص ١٥

وقد تعرض لها - في العصور المختلفة من غير المسلمين - اصحاب المدارس العقلية والنفعية والمادية ، وجاءوا لاثباتها بالمنطق او صدقوها ولكنهم نفروا من اثباتها ، أو جاءوا ليثبتوها بالحس المرئي : بالبصر المجرد او تحت عدسات المجهر .

اما الامام الصادق فقد رأى نفي الأينية والحدوث عن الله ، كما انه اثبت انه المؤثر في الموجودات ، فاذا حددنا هذا اصلاً لم نجد المتكلمين قد زادوا على هذا الاصل شيئاً ، وانما فرغوا منه واكثروا التفريع : الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة ومن تبع مدارسهم منذ اول الامر الى مدرستي الازهر والنجف . والمستبحر في علم الكلام يجد عند حجة الصادق في اثبات الصانع خالق الكائن - وهو غير الكائن - يجد عندها الحجة التي لم تكسر بعد ولم يُزاد عليها ، واظنها لن تكسر ولن يزد عليها .

وديكرت الفرنسي ابو المدرسة العقلية حين اثبت بفكره المجرد واجب الوجود الذي خلق الكائنات لم يأت بجديد حين قال : اني افكر فأنا موجود ، وليس وجودي بنفسى فأنا غير كامل ، واذن فالكامل هو الذي اوجدني والكامل هو الرب فهو موجود ، وهذه حقيقة لا شك فيها وهو الكمال المطلق ١٩١

(١٩١) مذكرات في تاريخ الفلسفة القسم الثاني ص ٤

ومثل ديكرات « هيجل » الذي يقول : نلاحظ في العالم وجود علاقات تنظّم الأشياء تنظيما داخليا وخارجيا ، بحيث تكون الوسائل موجّهة نحو غايات معيّنة ، والأجزاء مرتبطة بالكلّ الذي هو سابق لها . فالعالمُ مجموع اضافات غائية تنظم الأشياء، ويفرضها من الخارج كأنّ كلّ الحكمة والتدبير : هو الله ١٩٢

وجاء «جس جينز» في كتابه « الكون الغامض » يثبت علميا كون الله خارجا عن الكائن ، وقد ساق بين أدلته عليه أن الرصاص حين ينصبّ على فرقة من الجنود فيتوزع الرصاص كثرة وقلة على أجساد الجند ، لا نستطيع أن نحكم على أحد انه سيسبق الى الموت أولا ، لا الجندي الذي أصيب بواحدة ولا المصاب بمائة ، وقد يموت من لم يُصَبّ قبل أن يموت من أصيب ، فلو كانت مادة الجند هي الآله لأدركت أمرها ونظّمت بينها عملية الحياة والموت فمات المصاب اصابة بالغة قبل غيره ، ولكن عملية الموت تجري بين المصابين بلا نظام . فثبت أنّ مادة الجند - وهي من الكائن - لا تدرك أمرها ولا تنظمه ، وانما هو سرّ خارج عنها ، ويسوق «جينز» دليلا آخر أدق من ذلك، وذلك انه اذا وُضِعَ تحت المجهر خلية فتوالدت منها الخلايا وجرت حركة الحياة والموت

(١٩٢) رسالة البراهين على وجود الله .

بين الخلايا المولودة ، لم ينظر الموت الى الجدة والقدم او
الصحة والمرض او الضعف والقوة ، بل خبط بينها خبط عشواء .
فثبت له ان الصانع خارجٌ عن هذه الخلايا ، وان سرّ الحياة والموت
عنده وفي يده هو ، ولو كان السرّ فيها لكانت الحياة وكان الموت
يجريان في خليفة الخلايا بكمال النظام .

ان هذه المحاولات الفكرية المتوسعة والعلمية الدقيقة لا تعدّ
خالقة لنظرية واجب الوجود وخالق الكائنات ، واكبتها تعدّ
محاولات لاثبات النظرية وتنوعا لطرق الاثبات ، ولا يرُدُّ رادّ
بانقطاع «ديكارت» عن التأثير بما سبق له من قراءة العلم حين فكّر
في نظريته ، ولا التجاء «جسم» الى طرق الاثبات بالآلة والحساب ،
فان سلسلة الفكر الانساني متصلة ولو تغيرت صورُ التفكير وادلة
الاثبات . ومن فخرنا ان تكون النظرية بدأت من عندنا ، وكانت
من معجزات القرآن وأهل القرآن .

واكثر الفخر في ذلك يرجع الى جعفر بن محمد حيث ثبت
للقضية ثبوتا طويلا ، ولا يُستطاع حصرُ أحاديثه فيها . واننا
لنكتفي بالقليل ، فقد سأله هشام بن الحكم عن الله فقال : ان الله
تعالى لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، وكلُّ ما وقع في الوهم فهو غيره .

وسأله رجلٌ يُقال له محمد الحلبيّ : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقال الصادق : نعم ، رآه بقلبه ، فأما ربنا جلّ جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين ولا تحيط به أسماع السامعين ١٩٣

ولقد كان في عداد التابعين رجلٌ يُقال له الجعد بن درهم ، كان قد خرج فابتدع وضلّ ، وكثرت أخباره في الابتداع والزندقة ، وقد خيّل إليه انه جاء بما لم يجرى به أحد من الفكر والابتداع ، فجعل في قارورة ترابا وماء وتركهما ، فاستحال ما في الزجاج إلى هوام وديدان ، فقال : أنا خلقتُ هذا لأنني كنتُ سببَ كونه ! فبلغ ذلك جعفر بن محمد فأيقن بجهله وغباوته وقال : ليقل كم هو ؟ وكم الذكران منه وكم الاناث ان كان خلقه ؟ وليأمر الذي يسعى الى هذا ان يرجع الى غيره ! فبلغتُ الجعدَ مقالةَ الصادق فرجع عما قال مخذولا نادما ١٩٤

الكلام في القدر

منذ فتنة غيلان الدمشقي ١٩٥ وبعد موت عمر بن عبد العزيز والناس يسيلون في الكلام في القدر سيل الماء او سيل البحر. ينكرون

(١٩٣) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١١١

(١٩٤) لسان الميزان ج ٣ ص ١٠٥

(١٩٥) انظر الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ص ١٩٥

القدر، مع أن كثيراً من الصحابة قد نهى الناس أن يخوضوا في ذلك مع الخائضين . سئل علي بن ابي طالب عن القدر فقال : طريق مظلم فلا تسلكوه ، وسئل ثانية فقال : بحر عظيم فلا تلجوه ، ثم سئل الثالثة فقال : سر الله فلا تتكلفوه ١٩٦ . وامسك الناس منذ ذلك الحين عن الكلام في القدر حتى كان معبد الجهنني فتكلم فيه ، أخذه عن رجل مجوسي - كما قال ابن تيمية في كتابه شرح الايمان - ثم اخذ غيلان الدمشقي عن معبد ، فلما انتحله عمرو بن عبيد تلميذ واصل بن عطاء سلك اهل البصرة مسلكه . ثم كثر بالشام والبصرة ، فأما بالحجاز فقد كان قليلاً .

وقالوا ان اول امره بالحجاز كان حين احترقت الكعبة فقال رجل : احترقت بقدر الله تعالى ، وقال آخر : لم يقدر الله هذا ! ١٩٧ ثم راحت الفتنة الى المدينة فسئل جعفر عن القدر فقال : هو امر بين امرين : لا جبر ولا تفويض . وقال فيه : ان الله تعالى اراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً ، فما اراده بنا طواه عنا ، وما اراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشغل بما اراده بنا عما اراده منا ؟ ١٩٨

(١٩٦) الكشكول للبهائي ص ٢٣٦

(١٩٧) لوائح الانوار البهية ص ٢٥١

(١٩٨) الملل والنحل ج ١ ص ٩٥

وقال الصادق لزرارة بن أعين : يا زُرارة ، أعطيك جملةً في
القضاء والقدر ؟ قال : نعم ، مُجِبتُ فذاك ! قال : انه اذا كان
يومُ القيامة وجمع الله الخلائق سألمهم عما عهد اليهم ، ولم يسألهم
عما قضى عليهم !

الرأي والدين

لا رأي لأحد في ان يغيّر من أحكام ديننا ، ولم يكن لأحد
من اتباع هذا الدين ان يخالف امرأً فعله رسول الله ليُقتدى به ،
وقد تعرض علي بن ابي طالب لهذا الحكم فقال : لو كان الدين بالرأي
لكان أسفل الخلف اولى بمسحه من اعلاه ، ولكن رأيت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يمسح أعلاه ١٩٩

ومن هذه الناحية وقف جعفر بن محمد يمنع ان يُدفع بالرأي
في الأمور التي صدرت فيها أحكام دينية ، وتعرض جعفر لكل
من شاع عنه انه يُعمِل رأيه ، كي يعلمه جعفر ويهديه ، وما
أظن احداً من فقهاء المسلمين جميعاً يكون له غيرُ هذا الرأي في
احكام الدين .

والرأي ان كان مبنياً على غير أصل من كتاب او سنة فهو
مذموم ، وجميع البدع انما هي رأي على غير أصل ، ولذلك كانت

(١٩٩) تيسير الوصول ج ٣ ص ٨٣

ضلالات لانها كلام في الدين بالتخرّص والظن . وقد خرّج ابن
وهب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال : اصبح اهل
الرأي اعداء السنن ، أعيّتهم الاحاديث أن يعوّها وتفلّنت
منهم ٢٠٠

ومعلوم ان الآثار الزامة للرأي لا يمكن ان يكون المقصود بها
ذم الاجتهاد على الاصول في نازلة لم توجد في كتاب ولا سنة ولا
لمجماع ممن يعرف الاشباه والنظائر ويفهم معاني الاحكام من حيث
لا يعارض كتاباً ولا سنة ، ولا ما كان عليه سلف هذه الامة ٢٠١

الصادق والنعمان

وقد قيل ان الصادق ناظر أبا حنيفة ونهاه عن الرأي . ولكن
المناظرة التي ساقوها لم تدل على ان الرجلين كانا يختلفان . فان أبا
حنيفة لم ينكر على الصادق رأيه ، وما كان ابو حنيفة يرى ان
ينقض حكماً من احكام الدين . وها هو ذا أبو حنيفة نفسه يرد على
الصادق حينما قال له : بلغني انك تقيس - يرد ابو حنيفة قائلاً : انما
أقيس فيما لا أجد فيه نصاً ٢٠٢ . وانما بدت المناظرة حول المقدرة

(٢٠٠) انظر الباب الثاني في ذم البدع من الاعتصام ج ١ ص ١٢١

(٢٠١) انظر « المسألة الخامسة والعشرون » من الاعتصام ج ٣ ص ١٧٠

(٢٠٢) نور الابصار ص ١٤٥

على إدراك السر في اختلاف الاحكام ، وذلك امرٌ كان يقدر عليه
الامام اكثر مما كان يقدر عليه النعمان ، وعلى الأقل في الزمن الذي
تناظرا فيه .

وان الصادق لأجل من ان يشعلها خصومة في الدين بينه وبين
ابي حنيفة او غيره ، لان جعفرأ كان يوصي الناس ويقول : اياكم
والخصومة في الدين فانها تشغل القلب وتورث النفاق ٢٠٣

ولقد كانت هناك معرفة قديمة بين بيت النعمان وبيت علي بن
ابي طالب ، فان ثابتأ ابا النعمان كان ذهب الى علي بن ابي طالب
وهو صغير ، فدعا علي بالبركة فيه وفي ذريته . قال إسماعيل بن
حماد بن النعمان بن ثابت : ونحن نرجوا من الله أن يكون قد
استجاب الله ذلك لعلي بن ابي طالب فينا ٢٠٤

ولم يجتمع ابو حنيفة والصادق على الاقرار باحكام الدين في
الحدود ، والايمان بالقدر وحسب ، ولكن في كثير من الآداب ايضاً :
فأبو حنيفة كالصادق ممسك عن الكلام في السلف ، وقد سمع الى
عطاء بن ابي رباح كما سمع جعفر ، وقيل انه ممن تشيعوا حين رأوا
مياه لاهل البيت ، حتى قيل انه افتى بالخروج على المنصور مع ابراهيم

(٢٠٣) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٣

(٢٠٤) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٢٦

قلوا انه بايعه مع نفر من وجوه المسلمين فيهم بشير الرحال
والاعمش وعباد بن منصور القاضي - الذي ينسب اليه مسجد عباد
بالبصرة - والفضل بن محمد وشعبة الحافظ وكثير من نظائر هؤلاء ،
وكان ذلك إثر خطبة ابراهيم بن عبد الله على منبر البصرة ، تلك
الخطبة التي قال فيها : اللهم قد ترى خروجنا ولم نخرج أشراً ولا
بطراً ولا رغبة في الدنيا ولا حرصاً عليها ولا ابتغينا ملكاً الا لنرد
على هذه الامة ألفتها وزدها الى معالم دينها ، ولنعلمها سنة نبيها عليه
الصلاة والسلام ٢٠٦

وقد اتبع ابو حنيفة ومعه صفوة الناس ابراهيم لما رأوا من صدقه
في دعوته ، فانه لم يكن خطيباً بليغاً وحسب ، ولكنه كان عاملاً بما
يقول ، فقد جاءوه الى البصرة بما قالوا : يا ابن رسول الله ، قد أتيناك
بما تستعين به ، فقال : من كان عنده شيء فليعنه به أخاه ،
وأما ان آخذه فلا ، ثم قال : هل هي الا سيرة علي بن طالب او
النار ! ٢٠٧

(٢٠٥) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٨٥

(٢٠٦) غاية الاختصار ص ١٨

(٢٠٧) غاية الاختصار ص ١٩

هذا ، ولقد قالوا ان أبا حنيفة لقي عطاء بمكة فسأله عن شيء
فقال عطاء : من أين أنت ؟ فقال : من أهل الكوفة ، ثم جعل
عطاء يسأله حتى قال له : فمن أي الأصناف أنت ؟ فقال أبو حنيفة :
ممن لا يسب السلف ، ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحدا بذنب
فقال عطاء : عرفت فالزم ! ٢٠٨

قال ابن شبرمة : دخلتُ أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد
الصادق ، فقلت : هذا رجل فقيه من العراق ، فقال جعفر : لعله
الذي يقيس الدين برأيه ! أهو النعمان بن ثابت ؟ قال ابن شبرمة :
ولم اعلم باسمه الا ذلك اليوم ، فقال أبو حنيفة : نعم أنا ذلك
- أصلحك الله - فقال له جعفر : اتق الله ، ولا تقس الدين برأيك ،
فان اول من قاس برأيه ابليس ، اذ قال : « أنا خير منه » فأخطأ
قياسه فضل .

ثم قال جعفر : أيما أعظم عند الله اثما : قتل النفس التي حرم
الله بغير الحق أم الزنا ؟ فقال أبو حنيفة : بل القتل . قال جعفر :
ان الله تعالى قد قبل في القتل شهادتين ، ولم يقبل في الزنا الا اربعة ،
فأنى يكون لك القياس ؟

ثم قال جعفر : أيما اعظم عند الله : الصوم ام الصلاة ؟ فقال

(٢٠٨) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٣١

أبو حنيفة : الصلاة . قال جعفر : فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ؟ اتق الله يا عبد الله . ولا تقس الدين برأيك ، فانا غداً بين يدي الله فنقول : قال الله وقال رسول الله . وتقول أنت وأصحابك : سمعنا ورأينا ، فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء ٢٠٩

هذا ما يقال انه جرى بين الصادق والنعمان ، أو لعله بعض ما كان أو أكثر مما كان ، وفي كل ذلك لم يظهر فيه خلاف بينهما ، فان أبا حنيفة لم ينكر على الصادق شيئاً مما قال ، وليس فيما ترك أبو حنيفة من فقه ما يخالف فيه برأيه حكماً ثابتاً من القرآن أو الحديث . ولقد أراد بعض أهل القياس أن يتخذوا القصة فقالوا ان الزنا لا يقبل الا اربعة شهداء طلباً للستر ، وزاد بعضهم ان الجنابة فيه من اثنين فوجب لكل واحد شاهدان . وقالوا ان الحائض لا تقضي الصلاة دفعاً للمشقة ، ولأن الصلاة تتكرر خمس مرات في اليوم . أما الصوم فمرة في كل عام .

ومع كل ذلك فليس في القصة ما يشعر أن أبا حنيفة خرج في هذه القضايا ذاتها التي ضربها جعفر عن احكام الدين ، ولم تخرج

(١٠٩) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٣ والحوار هنا طويل وقد تركنا منه ما لا دخل له في امور الفقه الديني

عن كونها أدلة على ان احكام الدين جاءت ومن ورائها أسرار ، فلم يزد هؤلاء على ان كشفوا عن بعض هذه الاسرار .

وأبو حنيفة نفسه لا يتعصب لرأيه كل التعصب ، بل انه يقول :
اذا بلغك رأيي ووجدت حديثا صحيح النسب الى الرسول - عليه الصلاة والسلام - يناقضه فاترك رأيي واتبع الحديث فانه مذهبي .
والشافعي مثله يقول : اذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط . هذا ما بين الرأي والحديث الصحيح ، اما القرآن فهو أولى ولا رأي لأحد مع قول القرآن .

وقد سمع أبو حنيفة لجعفر وأقرّ بفقهاءه ، ولكنه لم يترك القياس فيما ليس فيه حكم في الدين ، وقد أولع به ، حتى ان علي بن عاصم حدث عن أبي حنيفة حديثا فيه فكاهاة قال : دخلتُ على أبي حنيفة وعنده حجّام يأخذ من شعره ، فقال للحجّام : تتبّع مواضع البياض ، فقال الحجّام : انه يكثر لو تتبّعته ، فقال أبو حنيفة : تتبّع مواضع السواد لعله يكثر ! قال علي بن عاصم : فلو ترك أبو حنيفة قياسه تركه مع الحجّام ! ٢١٠

وأعجب الأمر أن الحديث وقف بين الصادق والنعمان عند حدّ ذلك الكلام ، ثم قيل ان النعمان تبع جعفرا يتعلم منه عامين كاملين

(٢١٠) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٤٨

ثم قيل انه تشيع له . وجعل أبو حنيفة يقول : لم أر أفقه من جعفر
ابن محمد . ولكن أتباع الرجلين تعدّيا القول في صحة الرأي أو
بطلانه الى الخصومة المرة واللجاج الشديد ، حتى تناول بعض منهم
البعض الآخر بالشتم والافساد والشماتة عند الموت ، وصار للبغضاء
بينهم تاريخ مؤسف شأن الاتباع في كل زمان وكل مكان ٢١١

تأصيل مذهب

وحارب جعفر بن محمد في قوة قاهرة وحجة دامغة من تشيعوا
لعنه محمد بن الحنفية او لغيره من غير بني الحسين وألزمهم الحجة ،
فرجع كثير منهم الى عمود بيت الحسين يجعلون فيه الامامة . وقد
نجح جعفر نجاحا باهرا اذ قصد الى الدعوة لابن الحنفية فأزالهم عن
التحنّف الى التجعفر ، وقد حدث ذلك مع مثل السيد الحميري
الشاعر وحيّان السراج ٢١٢ اذ بين لهما ما انحرفوا فيه من
الاعتقاد بامامة ابن الحنفية ، وما زال يعلمهم ويفحّمهم ويقص عليهم
ويخبرهم بموت ابن الحنفية ودفنه وتقسيم ميراثه على مشهد من محمد
ابن علي أبيه ومشهد من الناس حتى فهموا وأيقنوا .
وكان فيما قاله جعفر : ما مات ابن الحنفية حتى أقرّ لعلي بن

(٢١١) انظر اخبار النعمان بن ثابت تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٢٣

(٢١٢) محمد بن الحنفية ص ٨٦

الحسين بالامامة ٢١٣ . وكذلك نسبوا الى جعفر بن محمد أنه هو
الذي أعلن نظام طريق الامامة من بعده، إذ كانت لأبنائه وأحفاده
خاصة ، وذلك حيث يقول : ان الامامة لا تكون في اخوين بعد
الحسن والحسين عليهما السلام ٢١٤

ولم يكن مظهرًا من أئمة المذاهب انهم كانوا يدرون انهم
يرسمون مذاهب لهم ، وانما هي آراء وفتاوى في جميع مسائل الدين
أفتوا بها ورأوها، ثم جمعها اصحابهم ودونها فصار لها مزينة تفردوا
وخاصة تميزها فصار مذاهب ، لكل واحد منهم او جماعة مذهب .
أما جعفر بن محمد فقد كان يعلم عن بصيرة واعية وخطة موقوتة أنه
يرسم مذهباً .

وكانت إثارة الحب لأهل البيت من طريق العلم أقدر وأرسخ
من إثارة الحب لهم بأنهم وارثو خلال النبوة، ولذلك حشد الصادق
جهده وكان معلماً ، وقد فطن - رضي الله عنه - الى ان طريق
النضال من اجل اهل البيت او من اجل مذهبهم في الدين لا
يكون الا بحب بصير يتعلم فيه المحبون اقدار من يحبونهم في ضياء
من النور . ثم كان تعليم انصاره مفاهيمه خطوة قوية في النضال .

(٢١٣) محمد بن الحنفية ص ٧٤

(٢١٤) فرق الشيعة ص ١٠٠

وقد علم الصادق أن العقيدة لا تكتب لها الغلبة ما لم يعتنقها جمهور كبير ثم يناضل من أجلها . ولم يعجز جعفر بعدُ وهو يثبت آراءه عن غزو قلوب الناس اجمعين .

فقه المدينة

ولقد حدث ابو حنيفة قائلًا : « ما رأيت أفتقه من جعفر بن محمد ٢١٥ » . هذا الفقه الذي نشأ بالمدينة واستند الى اعمال اصحاب رسول الله واهل بيته بها . وعملُ اهل المدينة كان احد الاصول التي اتخذها مالك ، فعند اثباته عادة فقهية كان يعتمد العادة والرأي المعتبرين عند علماء المدينة على العموم ، وقد لام الامام مالك تلميذه الليث بن سعد لما بلغه انه يفتي في البلدان خلافًا لما عليه اهل المدينة ، فرد عليه الليث ينكر ذلك ويقول : وما من احد أشد تفضيلًا لعلماء اهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني ! ٢١٦

بل ان ابن عباس سبق مالكًا بأنه كان يغدو فيبدأ بالمهاجرين ليسألهم عن اسباب التنزيل ، فان لم يجد عند واحد منهم أتى قري

(٢١٥) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩

(٢١٦) نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي ج ١ ص ٢٤٦

الانصار فتتبعهم رجلاً رجلاً حتى يجد حاجته ٢١٧

وهذا وان رده اصحاب ابي حنيفة في بعض نواحيه ولاسيما ما يرجع الى الرأي منها دون الذي يرجع الى النقل - فان فيه بعض النظر .
ولأمر ما بدأ البخاري في كل باب بذكر أحاديث اهل المدينة ، ما وُجِدَتْ ، ثم يتبعها غيرها . ويقول المشتغلون بالفقه من المحدثين انها طريقتهم - قد تأثروا فيها بالبخاري - فهم يقدمون رواية اهل المدينة اذا عارضتها رواية غيرهم ٢١٨

ولقد قيل ان رأي مالك لعله كان بتقديم اهل المدينة لان مالكا لم يرحل منها الى بلد آخر ، فدار معظم حديثه على ما رواه الحجازيون ٢١٩ . ولكن بعض الحنفية - وابو حنيفة عراقي - يميلون ميل مالك لان اصحاب النبي وعترته هم الاصل في الامر بالمعروف لقوله عليه الصلاة والسلام : تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا : « كتاب الله وعترتي » ٢٢٠

ومن هنا كان قدرُ الفقه الذي صدر عن جعفر بن محمد رضي الله عنه وأرضاه .

(٢١٧) الف باج ١ ص ٢٢٤

(٢١٨) أصول الفقه ص ٣٤٣

(٢١٩) النشريع الاسلامي ص ٢٤٤

(٢٢٠) شرح المنار ص ٧٣٩

ثورة المدينة

المدينة والاطراف

حين أخذ الامويون يسيرون تحت ظلّة الزوال تفتحت العيون من حولهم على أضواء لم تعد أبصار بني أمية تمتد اليها . واشتعلت في هذا الضوء نيران دعوتين :دعوة لبني العباس ، ودعوة لاولاد علي . ومع انهما كانا في غلاف واحد هو الدعوة لبني هاشم فقد أخذت الشرقة العباسية تلف سريعاً لتتفتح ، وكانت كلوزة الزهرة تفتحت من بُعد ولم تزل مقفلة من داخلها .

وكذلك اشتدت الدعوة في اطراف البلدان لبني العباس ، اما في المدينة فلم تزل دعوة هاشمية ، واللمعة المتألقة فيها لبني علي ، ولكن المدينة وهي مرمى أبصار الثأرين في الاطراف لم تكن في قوة تستطيع ان تفرض بها ارادتها ، وانما تنتظر او تتطلع لياتيها الحل من الخارج شأن كل من لا يملك قوة ينفذ بها مشيئته كما يشاء .

وثبت أهل المدينة ابصارهم في انفسهم فقبلوا الامور على قدر
ما رأوا ، ونظروا في تقليد الخلافة من شاءوا ، واتفقوا واختلفوا
واجتمعوا وتفرقوا ، وأحدثوا ضجيجاً في مفرغة من الهواء لم يُسمع
قط من بعد سحيق ولا قرب قريب .

ولكن جعفر بن محمد وهو في صميم قلب الزهرة التي لم تتفتح
كان رجلاً بصيراً حصيفاً ، كان يسمع الدعوة في الآفاق يتعالى
صوتها لبني العباس ويحور على حق ابناء عمومتهم - والناس أو من
معهم القوة والظروف التي تعين ينتظمون في سلك الدعوة انتظاماً -
وكان جعفر بن محمد يرى ذلك حقيقة لا شك فيها ، فيعرف الكفة
الراجحة والزمن المقبل ويراها رأي العين ، ويرى الخلاف في داخل
المدينة امرأ لا خير تحته لبني حسن ولا لبني حسين ، وإنما الدنيا
مقبلة على بني عمومتهم ابناء العباس ، ومن عين هذا اليقين الذي
لا يلتبس بشك نظر جعفر من ثقب الغيب .

ومنذ وقعتة الطف التي قتل فيها الحسين السبط ومصرع خير
اهل الارض حسباً ونسباً ، او منذ اختلف معاوية على علي - منذ
ذلك الحين انقسم اهل البيت فريقين : فريق يرى ان يحمل السيف
ليرد المدين مهايته ولدنيا عدتها . وفريق يرى ان يُسلك طريق

العزلة والسلامة لتحفظ على الدين مهايته وتترك الدنيا لهوانها ، وكلا
الفريقين كان على الحق ، لم يفارق الصواب ، وكلا الفريقين كان
من اعداء السلطان .

ولا عتب ولا ملامة على احد منهما ، اذ ان أولئك وهؤلاء لم
يدعوا الجهاد الاصغر ولا الجهاد الاكبر ، بل ظلوا اعداء الدنيا ،
تطحنهم كلما تسنى لرحاها ان تدور على اجسادهم ، ولم تدع صارخاً
منهم ولا صامتاً الا دارت عليه بثقالها .

وفي قلب المدينة اراد فريق السيف الثأرون من بني هاشم
ان يبايعوا لرجل من بني علي ، ثم تورعوا في الاختيار حتى لا يكون
في الرجل الذي يختارونه نقصاً ، بل يكون خالص الكمال ، وتورعوا
فاختاروا ان يكون اسمه محمد بن عبد الله ليكون يمناً في الطالع لانه
اسم رسول الله .

وكان لأحد بني الحسن المثنى بن الحسن بن علي ولد اسمه عبد الله ،
وكان في طليعة القوم ورياستهم بعد محمد بن علي الباقر ، وقد صار
له من العلم والفضل ما ملأ دنيا زمانه حتى خافه عمر بن عبد العزيز
حين وفد عليه في دمشق فردّه الى المدينة محتجاً له بحاجة بني هاشم
اليه ، ولكن الزاهد دفع عنه الأزهد لثلاثا يفتتن به الناس فيميلوا

وكان عبد الله بن المثنى عربياً خالصاً وهاشمياً محضاً ، لم يكن في أمهاته احد من فتيات الموالي أمّا ولا أبا ، وكانت هذه مفخرة اتخذها ، واتخذها الناس له ليؤيدوا ابنه محمداً وينصروه ، ثم يؤيدوا اخاه ابراهيم كذلك من بعده وينصروه . واحتشدت حول محمد آراء الرجال والنساء تؤيده وتدعوه ، وتجمع حوله الدلالات التي تؤيد ظنهم في انه مهديّ اهل البيت ، وليكون خليفة على الناس . وكأنما كان كل الناس معه الا جعفر بن محمد فقد رأى فيه غير ما رأى الناس .

فلما أفلت شمسُ بني أمية اجتمع بعضُ اصحاب الحق من اهل المدينة بالأبواء ٢٢٢ وكانوا من بني هاشم وانصارهم ، وسبق الناس الى الاجتماع ببيت العباس وبيت الحسن ، ومثل بيت العباس ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ومعه ابو جعفر المنصور وصالح بن علي . ومثل بيت الحسن بن علي عبد الله بن الحسن المثنى ومعه ابنه محمد و ابراهيم . ثم شهد الاجتماع معهم بعض

(٢٢١) الخليفة الزاهد ص ٢٠٦

(٢٢٢) الأبواء = مكان بأعلى المدينة

بني عثمان .

وسبق الى الكلام بنو العباس : بدأه صالح بن علي فطلب اليهم ان يعقدوا البيعة لرجل منهم ، وأيد عبد الله بن المثنى رأى صالح - وكان عبد الله من أقوال الناس ٢٢٣ - وأشار الى ابنه محمد يرشحه لصفاته في الحسب والنسب ، فأمن الناس على قول عبد الله ، وقاموا فبايعوا لابنه محمد ومسحوا على يده .

وأقبل العباسي أبو جعفر المنصور على العلوي محمد بن عبد الله اقبالا فريداً ، يبايعه ويتحمس له ويبالغ في اجلاله . كان ابو جعفر في ذلك اليوم اشد الناس دعوة له ، واقبل يبايعه وهو يرتدي قباءً أصفر جعله فريداً يومه تحمساً وملدساً . ومن فرط انفراده برأيه وتحمسه في ذلك اليوم كئوه بصاحب القباء الاصفر ، ثم ما زال المنصور يتحمس لمحمد ويحمله في كل مكان ، حتى قالوا انه حج معه فأقبل عليه يبايعه مرة اخرى بالمسجد الحرام حتى يعمَّ خبر البيعة الناس فلما خرج محمد من المسجد تقدم المنصور يمسك بركاب محمد ويقول لمن يسأله عنه : هذا محمد بن عبد الله ، هذا مهدينا أهل البيت ٢٢٤

رأي الصادق

ولم يكن بنو هاشم جميعاً قد حضروا اجتماع الابواء ، وانما غاب

(٢٢٣) غاية الاختصار ص ٢٧

(٢٢٤) مقاتل الطالبين ص ٢٠٨ ، ٢٣٩

منهم سادة ورؤساء ، وغاب معهم عنه بعض من لهم شأن ورأي :
غاب عنه من رأوا الا يبايعوا حتى يختبروا ، إذ كانوا قد رأوا الا ينتخبوا
اماماً الا اذا تحققوا من عدله ، وقد جعلوا ذلك مبدأ لهم ومذهباً .
وكان من هؤلاء عمرو بن عبيد صاحب واصل بن عطاء ، فلما سئل
لماذا لم يحضر ولم يبايع ؟ قال : لا ابايع رجلاً حتى اختبر عدله ٢٢٥
وغاب عنه من لم يرفي محمد الحسنى ما رأى الناس فيه . ثم غاب
عنه من امتد بصره وراء جدران المدينة فرأى الدعوة قد فرضت
طريقها . وكان من هؤلاء الذين لم يروا رأي الناس جعفر بن محمد .
وتلفت عبد الله الخض حوله ليرى المتخلفين عنه وعن ابنه فلم
ترعه الا غياب جعفر بن محمد ، وكان حينئذ اعظم من يمثل بيت
الحسين ، بل كان سيد بني هاشم جميعاً في زمانه ٢٢٦ ، فأرسل
عبد الله اليه من فوره فجاء جعفر اُجلالا له ورعاية لسنه ، ثم
اخبروا جعفرأ بما حدث من الرأي والبيعة فأذكر عليهم كل
الذي فعلوا .

فلما رأى الناس اُباء جعفر بن محمد وانكاره ، قالوا له : مد يدك
نبايعك ، فأبى وقال : انها ليست لي ولا لهما - يريد محمداً وأخاه

(٢٢٥) مقاتل الطالبين ص ٢٠٩

(٢٢٦) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٢٠

ابراهيم - ثم نهض وخرج ٢٢٧

وكان رأي جعفر بن محمد ألا يلج عبد الله المحض وولده هذا الباب ، ولن يفتحوا الرتاج ، والامر علي عبد الله جدّ عسير ، فان أصر عبد الله وتمسك برأيه في ابنه فان أقطع الرد أنه ليس في وصية علي بن ابي طالب أن يكون أحد من أبناء الحسن اماماً ، وان كان عبد الله يرى الامامة لولديه محمد و ابراهيم ، أحدهما بعد الآخر ، فانه ليس في وصية علي كذلك ان يلي الامامة اخوان غير الحسن والحسين .

ذلك امر امامة الدين ، أما اذا كان عبد الله يريد لولديه خلافة الدنيا فان البيت العباسي قد صار له فيها اعلى صوت واقوى دعوة ، وجعفر بن محمد كان ينظر امارة الناس فيراها تدنو عجلي من أقدام بني العباس ، ويرى المنصور صاحب القباء الاصفر في ذلك اليوم ، يوم الابواء ، انما يتحمس لمحمد بن عبد الله ثورة للعاطفة التي غمرته من عواطف بني هاشم ، ولو فكّر نصمت وامسك ، لانه عم اقرب سيكون صاحب الامر ، فاذا اصبح له فويل لمحمد من عاطفة ابي جعفر ، وويل لاختيه وايه منه ، بل ويل لبني علي جميعاً !

هذا رأى رآه جعفر بن محمد وقاله ، ثم لم يلبث ان صار حقاً

(٢٢٧) جامع كرامات الاولياء ج ١ ص ٣٧٩

وصدقاً ، فقال قوم : أخبر جعفر بن محمد بالغيب ، وقال قوم : صدق جعفر فيما ظن وحسب ، واختلف الناس في ادراك العلة ومعرفة السر ، ولهم ان يختلفوا ، ولا حرج ، ولكن الامر الذي لا شك فيه ان قولة جعفر بن محمد صارت حقاً وصدقاً ، وكأما كان جعفر حين قالها - واثقاً مطمئناً - ينظر من ثقب الغيب .

وقال جعفر لعبد الله : لا تفعلوا ، فان هذا الامر لم يأت بعد ، ان كنت ترى ان ابنك هذا هو المهدي فليس به ، ولا هذا أوانه ، وان كنت تريد ان تخرجه غضباً لله ، وليأمر الناس بالمعروف وينهى عن المنكر فاننا لله ، ولا ندعك - وانت شيخنا - ونبايع ابنك .

وهكذا أنصف جعفر نفسه وأنصف الحق ، وقضى على التاريخ الا يتهمه بأنه خذل بني الحسن لان له مطمعاً وبنفسه حسداً . ولكن عبد الله المحض غضب وقال له : لقد علمت خلاف ما تقول ! والله ما اطلعك الله على غيبه ! ولكن يحملك على هذا الحسد لابني !

قال جعفر : والله ما ذاك يحملني ! انها والله ما هي اليك ولا الى ابنك ! ثم نهض متوكئاً على يد عبد العزيز بن عمران الزهري ،

فلما انتحيا وبعدا عن الناس قال جعفر لعبد العزيز: أ رأيت صاحب
القباء الاصفر؟ قال: نعم، رأيتنه، قال جعفر: فانه سيقته !
واستخف عبد العزيز بن عمران بما سمع من جعفر وحسبه حسداً
منه، وظنَّ عبد الله على الحقِّ وانه صدق حين رمى جعفرًا بالحسد
لابنه، ولكنه لم يبد لجعفر بما في نفسه ثم عاد يقول له: أ يقتل
المنصور محمدًا؟ قال جعفر: نعم، فصار الظن بعبد العزيز مثل
اليقين فقال في نفسه: حسده ورب الكعبة! ثم رجع الى القوم
يهمس في آذنيهم بما قاله جعفر بن محمد، فوقع المقالة من نفوسهم
لما يعلمونه من صدق جعفر وانقضوا متفرقين.

أما عبد الله الحض وولده فمضوا في طريقهم دون ان يلقوا
بالا لما قاله جعفر. واما جعفر فصاركما رأى محمدًا دمعت عيناه وقال:
بنفسي هو! ان الناس ليقولون انه المهدي! وانه لمقتول!

وترامى الناس الى باب جعفر يسألونه وهو يقول لهم: انه لمقتول!
وقالت ام الحسن بنت عبد الله بن محمد الباقر: قلت لعمي جعفر بن
محمد: اني فديتك! ما امرٌ محمدٍ هذا؟ قال: فتننة! يقتل محمد عند بيت
رومي ٢٢٨ ويُقتل أخوه - لامة وأبيه - بالعراق، وحوافر فرسه
في الماء ٢٢٩

(٢٢٨) لعلها رومة: أرض بالمدينة، معجم البلدان ج ٤ ص ٣٣٦

(٢٢٩) مقاتل الطالبين ص ٢٤٨

واما ابو جعفر المنصور صاحب التباء الاصفر ومعه آخرون أهله
اسمه عبد الصمد فقد تبعنا جعفرًا حين بلغتهما مقاتله وسألاه : يا أبا
عبد الله ، أتقول هذا ؟ قل نعم ، أ قوله - والله - وأعلمه ! فالتهمت
عيننا المنصور واضاءت امامه السليل . ولم تكن كلمة جعفر بن محمد
تنبيهًا لبني العباس ليخوضوا امرًا لم يكونوا خائضيه ، ولكنها
دفعت في قلوبهم الاطمئنان لما يريدون ان يصلوا اليه .

واختلف الناس فيما سمعوا عن الرواة عن جعفر ، فقال قوم :
اخبر جعفر بن محمد بالغيب . وقال قوم : حسد جعفر بن محمد محمد
ابن عبد الله . وادعى قوم الخلاف بين بيت الحسن وبيت الحسين .
وتمنى عبد الله الحض الا يصدق جعفر . وتمنى ابو جعفر المنصور
ان يكون جعفر صادقًا . ومضى الزمن ليقول ان جعفر بن محمد صادق ،
سواء أ كان لخبارًا بالغيب ام كان ظنًا وحسابًا ، ولم يخرج أحد من
الأمة بعد عن تلقيبه بالامام الصادق - عليه السلام -

النفس الزكية

ولد محمد بن عبد الله الحض بن الحسن المثنى سنة مائة ، من
أب هو شيخ من مشايخ بني الحسن بن علي . وكان عمر بن عبد العزيز
حين ذاك اميرًا للمؤمنين ، فلما علم بمولده فرض له في فروض الذرية

وشبَّ محمد هذا من أفضل أهل بيته وأكبر أهل زمانه - في زمانه -
علماً بكتاب الله وحفظاً له ، وفقهاً في الدين ، وشجاعة وجوداً وبأساً ،
وكلَّ أمرٍ يحمل بمثله ، قد جمع في برديه كل فضل موروث ومكسوب
فلما رآه الناس كذلك لم يشك أحد في أنه المهدي الذي تجسمت
فيه الفكرة . وشاع ذلك له في العامة ، وسمي النفس الزكية وصريح
قريش ، ثم بايعه رجال من بني هاشم جميعاً : من آل أبي طالب ،
وآل العباس ، وسائر بني هاشم .

وقد سمي بالصريح لانه لم يحىء من أم ولد في جميع آبائه
وأمهاته ، بل جاء خالصاً نقياً من قريش أباً وأماً ، وسماه أهل بيته
بالمهدي ، وقدروا أنه الذي جاءت فيه الروايات عندهم ، واستفاض
فيه الحديث ٢٣١

ولكن علماء آل أبي طالب ولا سيما جعفر بن محمد كانوا يرون
فيه أنه النفس الزكية وأنه المقتول بأحجار الزيت ٢٣٢

(٢٣٠) مقاتل الطالبين ص ٢٣٧

(٢٣١) غاية الاختصار ص ١٢ ، ١٤

(٢٣٢) مقاتل الطالبين ص ٢٣٣ ، ٢٣٩ — معجم البلدان ج ١ ص

١٣٣ ، ج ٤ ص ٤١٣ وأحجار الزيت موضع قرب المسجد عند السوق بالمدينة
قريب من الزوراء وهو موضع صلاة الاستسقاء عندهم .

ومند صار صريح قر يش صبيماً وهو يتوارى في البادية والقرى
ويراسل الناس بالدعوة لنفسه ويدعي انه المهدي . فلما قتل الوليد
ابن يزيد الاموي واختلفت كلمة بني مروان كثرت دعاة بني هاشم
في النواحي ، جماعة يدعون لآل علي ، وآخرون يدعون لابناء العباس
ثم ما لبث بنو العباس أن ظهروا وملكوا .

بنو العباس

ومضت خلافة بني العباس سريعاً من السفاح الى المنصور .
فحرص المنصور على الظفر بعبد الله وولديه لما في عنقه من البيعة
لمحمد . وكان عبد الله المحض رجلاً خيراً ، وكان مع السفاح ،
وكان السفاح له مكرماً وبه أنيساً ، جاوره بالعراق مدة ثم رده الى
المدينة ٢٣٣ . فلما تولى المنصور ظلّ عبد الله المحض مقياً بالمدينة
ظاهراً لعوسنه ، اما ولده فقد توارى .

فلما جاءت سنة أربعين ومائة وجاء المنصور ليحجّ نزل بالمدينة
وجاء بعبد الله فسأله عن ولديه فأنكر انه يعلم مكانهما ، فلم يرض
منه المنصور هذا الانكار وطالب اليه ان يأتيه بهما ، وتقاولا ، فأغلظ
كل منهما لصاحبه في القول .

(٢٣٣) الحور العين ص ٢٧١

ثم مضى المنصور الى مكة وهو يرى انه أخطأ حين أغلظ
لعبد الله في قوله ، فلما كان بوادٍ في ديار هوازب يقال له
« أوطاس » ٢٣٤ دعا اليه جماعة من الطالبين و بني العباس وفيهم
عبد الله المحض وأعاد عليه القول ، ثم جعل يلين له ويطلب اليه
ان يكتب لولديه علي الطاعة ، فلم يرَ من عبد الله جواباً ، فعاد الى
مغالطته وأمر بحبسه .

وعاد المنصور من الموسم فلم ينزل المدينة ، ولكنه مال الى
الرَّبْدَة ٢٣٥ ثم أرسل الى بني الحسن فأخرجهم اليه من المدينة
ثم اخرج عبد الله المحض واخوته الحسن وداود و ابراهيم قد شدوا
في وثاق ، فوافوه بالرَبْدَة مكتوفين ، وواقفهم بباب خبائه ، فسأل
عبد الله ان يأذن له في الدخول عليه فلم يأذن له ، فلم يره حتى فارق
الدنيا ، ومات في الحبس هو واخوته جميعاً ٢٣٦

حدث الحسن بن زيد قال : اني لواقف بين القبر والمنبر اذ
رأيتُ بني الحسن يُخرج بهم من دار مروان مع ابي الازهر يراد
بهم الرَبْدَة ليعذبوا هناك ، فأرسل اليّ جعفر بن محمد فقال : ما

(٢٣٤) اوطاس كانت فيه وقعة حنين معجم البلدان ج ١ ص ٣٧٥

(٢٣٥) الرَبْدَة من قرى المدينة على ثلاثة اميال قريبة من ذات عرق وبها

قبر ابي ذر الغفاري — معجم البلدان ج ٤ ص ٢٢٢

(٢٣٦) الحور العين ص ٢٧٢

وراءك؟ قلت: رأيت بني الحسن يُخرج بهم في محامل، فقال: اجلس، فجلست. قال الحسن بن زيد: فدعا جعفر غلاماً له، ثم دعا ربه كثيراً، ثم قال لغلامه: اذهب فأخبرني إذا حملوا، فأناه الغلام فقال: قد أُقبل بهم. فقام جعفر فوقف وراء ستر رقيق من شعر ابيض، فلما نظر اليهم هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته. قال الحسن بن زيد: ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا عبد الله، والله لا تحفظ الله حرمةً بعد هذا! والله ما وفيت الانصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعطوه من البيعة على العقبة!

ثم قال جعفر: حدثني ابي عن ابيه عن جده عن علي بن ابي طالب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: خذ عليهم البيعة بالعقبة، فقال: كيف آخذ عليهم؟ قال: «خذ عليهم بياعون الله ورسوله على ان يطاع الله فلا يُعصى، وعلى ان تمنعوا رسول الله وذريته مما تمنعون منه انفسكم وذرائعكم» قال جعفر: فوالله ما وفوا له حتى خرج من بين أظهرهم، ثم لا أحد يمنع يد لا مس! اللهم فاشدد وطأتك على الانصار! ٢٣٧

(٢٣٧) مقاتل الطالبين ص ٢١٩. هذا ولم يأت في كتب السيرة أن علياً كرم الله وجهه كان الآخذ على الناس البيعة بالعقبة، وانما جاء ان الآخذ هو العباس. ولم تذكر كتب السيرة ان النبي أخذ على الانصار منع ذريته. فخبير مقاتل الطالبين خبير فريد.

وجاء بنو الحسن الربذة، وسيق عبد الله واخوته وأهل بيته الى العراق ، وقد أثقلتهم القيود ، وسير بهم من طريق النجف حتى حبسوا في قصر لابن هُبَيْرَة في شرقي الكوفة مما يلي بغداد ٢٣٨ . وما زال عبد الله يعذب في حبسه حتى طرح للناس مقتولا .

الصادق بالربذة

ولم يفت المنصور أن يرسل الى جعفر بن محمد ليرؤعه ، فقد كان المنصور يعلم أن جعفرا انما يمنع محمداً من أن يدعي أنه المهدي ، ولا يمنعه من أن يغضب لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فقال المنصور لحاجبه الربيع : ابعث الى جعفر بن محمد من يأتينا به مُتَعَبًا . ثم قال المنصور : قتلني الله ان لم أقتله ! فتغافل الربيع عنه وتناساه ، فأعاد عليه المنصور في اليوم الثاني وشدّد عليه ، فأرسل الربيع في طلبه ، فلما حضر قال له الربيع : يا أبا عبد الله ، اذكر الله تعالى ، فانه قد أرسل لك مَنْ لا يُدْفَعُ شرّه الا بالله ، واني أتخوّف عليك ! فقال الصادق : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! ثم ان الربيع دخل به ، فلما رآه المنصور بادأه بالشرّ وأغلظ له في القول ، ولكنه تركه يرجع الى المدينة ومضى هو الى العراق ، وفيه على الصادق بعض الرضا

وما كاد المنصور يصل الى العراق ويستقر بها حتى بلغه ظهور محمد بن عبد الله هو واخوه ابراهيم بالمدينة ، ثم غلبا عليها وعلى مكة ، ثم امتد سلطانهما الى البصرة . ولما ظهر الصريح بالمدينة كتب الى ابي جعفر المنصور يتهدده ويطلب اليه أن يبايعه ويدعوه الى مواعدهته ويبدل له الأمان ٢٣٩ . ثم جعل يذكر له فضله عليه ويعيِّره بأمهات العباسيين لانهن أمهات أولاد ، وكان المنصور نفسه من أم بربرية اسمها « سلامة » ولدته بالشراة ٢٤٠ ، فرد أبو جعفر على الصريح يقول له فيما قال : وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين زين العابدين وهو لأم ولد ، ولَهُوَ خَيْرٌ من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي الباقر ، وجدته أم ولد ولَهُوَ خَيْرٌ من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد وهو خير منك ٢٤١

ومع تنبؤ الصادق بمقتل محمد وأخيه ابراهيم فانه أبى أن يخذل

(٢٣٩) غاية الاختصار ص ١٥

(٢٤٠) المعارف ص ١٦٤ — والشراة صقع بالشام بين دمشق والمدينة ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحجيمة وكان يسكنها ولد علي بن عبد الله بن عباس في أيام بني مروان — معجم البلدان ج ٥ ص ٢٤٧

(٢٤١) ابن الاثير ج ٥ ص ٢٥٥

بني الحسن ، فأرسل ولديه موسى وعبد الله ليكونا مع النفس الزكية حين خرج ، وشهد معه من ولد الحسين أربعة : الحسن وعيسى ولدا زيد بن علي زين العابدين ، وموسى وعبد الله ولدا جعفر الصادق ، وكان عبد الله بن جعفر الصادق في الرماة البارزين .

وكان عجب المنصور لخروج ولدي زيد بن علي شديدا ، كان يقول : العجب لخروج ابني زيد ، وقد قتلنا قاتل أبيهما كما قتله وصلبناه كما صلبه وأحرقناه كما أحرقه ٢٤٢ أما موسى وعبد الله ابنا جعفر فقد كانا عند صريح قریش لما نأر وظهر ، وجاءه جعفر فسلم عليه ثم قال له : تحب أن يُصطَلَمَ أهلُ بيتك ؟

قال محمد : ما أحب ذلك !

قال الصادق : فان رأيت أن تأذن لي ، فأنت تعرف عنتي !

قال : قد أذنت لك !

فمضى جعفر ، ثم التفت محمد الى ولديه موسى وعبد الله فقال لهما :

الحقا بأبيكما ، قد أذنت لكما ، فانصرفا . فالتفت جعفر وهو يمضي فقال : مالكما ؟ قالا : قد أذن لنا ، فقال جعفر : ارجعا فما كنت بالذي أبخل بنفسي وبكما عنه ، فرجعا ، فشهدا الثورة معه حتى

قتل ٢٤٣ .

(٢٤٢) مقاتل الطالبين ص ٢٧٧ ، ٢٧٨

(٢٤٣) مقاتل الطالبين ص ٢٥٢

قانون المصادر

ولما نشبت الحرب انحدر المنصور الى الكوفة مسرعا فوجه جيشه الى المدينة مع عيسى بن موسى ، وجعل على مقدمته حميد بن قحطبة . ثم دخل الجيش المدينة وقتل محمد بن عبد الله المحض في رمضان سنة خمس واربعين ومائة ، في السنة التي ظهر فيها ٢٤٤

ولم تضع الحرب اوزارها الا عن غضب شديد من المنصور على الصادق ، فانه - وان كان قد امتنع عن شهود الحرب مع الصريح - قد دفع بولديه اليه فحاربا معه ، فلما خمدت الحرب وقتل الصريح تواري الحسن بن زيد فأقام في منزل عمه جعفر الصادق ، وكان جعفر قد رباه صغيراً ونشأه في بيته وكفاله منذ قتل أبوه زيد وعلمه جعفر فأخذ الناس عنه علما كثيرا ، فكأنه ابن ثالث له . وكان المنصور يعرف ذلك ويضمه للصادق .

ثم انه ما كاد محمد و ابراهيم ولدا عبد الله يقتلان حتى ضم جعفر الصادق اليه اخاهما « يحيى » ليربيه ، وقد شب يحيى هذا يحب الصادق حبا جما ويسميه « حبيبه » فكان كلما حدث عنه قال : حدثني حبيبي جعفر بن محمد ٢٤٥ . فهذا ابن رابع له يخاصم المنصور .

(٢٤٤) المعارف ص ١٦٤

(٢٤٥) مقاتل الطالبين ص ٤٦٤

وقد شهد مع الصريح ثورته بعض خاصة الباقر أبي جعفر بن محمد ، فكان عبد الله بن عطاء معه حين ثار وقاتل . كل ذلك واكثر منه أثار المنصور على الصادق ، فلما وجه المنصور قائده وابن أخيه عيسى بن موسى لحرب الصريح أوصاه أن يصادر مال كل من لا يلقاه من بني هاشم - ولعلها أول مرة في قانون المصادرات أيام العباسية - فكان ممن غاب عنه ولم يلقه حين دخل المدينة جعفر ابن محمد ، كان قد ترك المدينة وذهب الى الفرع^{٢٤٦} . فصادر عيسى ضيعة له يقال لها عين أبي زياد . اما ضياع بني الحسن فقد صادرها عيسى جميعا .

حدث سعيد الرومي مولى جعفر بن محمد قال : أرسلني جعفر ابن محمد أنظر ما يصنعون ، فبحثته فأخبرته أن محمداً قتل ، وأن عيسى قبض على عين أبي زياد ، فاطرق جعفر بن محمد طويلاً ثم قال : ما يدعو عيسى الى أن يسيء بنا ويقطع أرحامنا ؟ فوالله لا يذوق هو ولا ولده منها شيئاً^{٢٤٧}

(٢٤٦) الفرع بضم الفاء وتسكين الراء او بضمها قرية نواحي الربرة عن يسار نسقيا ، بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة وقيل اربع ليال ، وهي قرية ذات نخيل وعيون ماء يقال انها اول قرية مارت اسماعيل وأمه التمر بمكة - معجم البلدان ج ٦ ص ٣٦٣
(٢٤٧) مقاتل الطالبين ص ٢٧٣

استكبار المنصور

وحجَّ المنصور من قابل سنة ست واربعين ومائة ومال الى الربرة كعادته ودعا اليه الصادق فشكا اليه الصادق قائلا : اردد عليّ عين أبي زياد آكل من سعفها ، فقال المنصور : اياي تكلم بهذا الكلام ؟ والله لازهقنّ نفسك ! فقال جعفر : لا تعجل ، قد بلغت ثلاثا وستين وفيها مات أبي وجدي !

قال المنصور : قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي ، وقد هممت أن أبعث اليهم من يُغور عيونهم ويُجمر نخلهم ! فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين ، ان سليمان أعطي فشكر وان أيوب ابتلي فصبر وان يوسف قدر فغفر فاقتد بأبهم شئت ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون .

ولم يكن جعفر بن محمد يترضى المنصور أو يتملقه ، ولكنه كان يعظه ويدعوه للشكر والصبر والمغفرة ، ويريده على أن يقتدي بمن هم قدوة للناس ، ويردّه الى المكان الذي هو منه في بني هاشم الذين يعفون ويصفحون .

وكان أبو جعفر المنصور رجلا متعاليا يحب أن ينكسر له جميع الناس . وقد قالوا انه لما قتل محمد بن عبد الله المحض اعترضته امرأة معها صبيّان فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنا امرأة محمد بن عبد الله

وهذان ابناه ، أيتهمها سيفك ، وأضرعهما خوْفُك ، فناشدتك الله
يا أمير المؤمنين أن تصعّر لهما خدك فينأى عنهما ردفك ، ولتعطفك
عليهما شوابكُ النسب وأواصرُ الرحم ، فالتفت المنصور الى حاجبه
الربيع فقال : اردد عليهما ضياع أبيهما . ثم قال : كذا والله أحبُّ
أن تكون نساء بني هاشم !

وكذلك يرضى أبو جعفر المنصور ، أما أن يلقنه الصادق درسا
ويعلمه عظة فإنه لا يقبل ، فما كاد الصادق يعظه بالشكر والصبر
حتى قال له متعاليا : انَّ أحدًا لا يعلمنا الحلم ولا يعرفنا العلم ! وإنما
قلتُ « هممتُ » ولم ترني فعلت ! وانك لتعلم أن قدرتي عليهم
تمنعني من الاساءة اليهم ! ٢٠٨ ثم حدثَ بينهم كلام وخرج
الصادق . ثم قال قوم : ردّ المنصور عليه ضيعته وقال قوم : لم يردّها

أسف الصادق

وحين أرسل المنصور في استحضار الصادق اليه بالربذة قال
الصادق لابن عمه علي بن زين العابدين : يا علي ، بنفسي أنت ! سر
معي . فسار معه علي الى الربذة ، فدخل على المنصور وقام عليّ
ينظره ، ثم خرج الصادق وعيناه تذرفان ، فقال لعلي : يا علي ، ما

(٢٤٨) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٣ ط ٢

لقيتُ من ابن الخبيثة ! ثم قال : رحم الله ابني هند ! ٢٤٩ انهما
ان كانا لصابرين كريمين ! والله لقد مضيا ولم يصبهما دنس ! فما
آسى على شيء الا على تركي اياهما لم اخرج معهما .

ولقد حدثت الصادق عن هذا اللقاء ، قال : لما رُفِعَتْ الى
أبي جعفر المنصور بعد قتل محمد بن عبد الله بن الحسن نهرني وكلمني
بكلام غليظ ثم قال : يا جعفر ، قد علمتَ بفعل محمد بن عبد الله
الذي تسمونه النفس الزكية وما نزل به ! وانما أنتظر الآن أن يتحرك
منكم أحد فألحق الصغير بالكبير . قال جعفر : فقلت : يا أمير
المؤمنين ، حدثني محمد بن علي عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : ان الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث
سنين فيصله الله الى ثلاث وثلاثين ، وان الرجل ليقطع رحمه وقد
بقي من عمره ثلاث وثلاثون فينزله الله الى ثلاث . قال : فقال
المنصور : آله سمعتَ هذا من أبيك؟ فقلت : والله لقد سمعتها منه .
فرددتها المنصور ثلاثاً ثم قال : انصرف ٢٥٠

الصادق بالكوفة

ولما قتل ابراهيم بن عبد الله أخو محمد بالكوفة ، أمر أبو جعفر

(٢٤٩) محمد و ابراهيم ابنا عبد الله المحض كانت أمها هند بنت أبي عبيدة
ابن عبد الله بن زمة بن الاسود من بني عبد العزى — غاية الاختصار ص ١٢ ، ٢٤ ،
(٢٥٠) مقاتل الطالبين ص ٢٥٢ — نور الابصار ص ١٤٧

المنصور أن يُسَيَّرَ إليه كل بني الحسن ، وأمر أن يُسَيَّرَ معهم
جعفر بن محمد . قال يونس بن أبي يعقوب : حدثنا جعفر بن محمد
من فيه الى أذني قال : لما قتل ابراهيم بن عبد الله بياخمرًا ٢٥١
حُسِرْنَا عن المدينة ، ولم يترك فيها منا محتلم ، حتى قدمنا الكوفة ،
فمكثنا فيها شهرًا نتوقع فيها القتل ، ثم خرج الينا الربيع الحاجب
فقال : أين هؤلاء العلوية ؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم
من ذوي الحجا . قال جعفر : فدخلنا اليه أنا والحسن بن زيد ، فلما
صرتُ بين يديه قال لي : أنت الذي تعلم الغيب ؟

قلت : لا يعلم الغيب الا الله !

قال : أنت الذي يجيبى اليك هذا الخراج ؟

قلت : اليك يجيبى - يا أمير المؤمنين - الخراج

قال : أندرون لم دعوتكم ؟

قلت : لا

قال : أردتُ أن أهدم رباعكم ، وأروع قلوبكم ، وأغور

قلبيكم ، وأعقر نخلكم وأترككم بالسراة ٢٥٢ ، لا يقربكم أحد من

(٢٥١) باخرا موضع بين الكوفة وواسط وهو الى الكوفة أقرب .

قالوا بينها وبين الكوفة سبعة عشر فرسخًا . وبها الواقعة بين أبي جعفر و ابراهيم

فقتل ابراهيم هناك - معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨

(٢٥٢) السراة جبل مشرف على عرفات ينقاد الى صنعاء - معجم البلدان

ج ٥ ص ٥٩

أهل الحجاز وأهل العراق ، فانكم مفسدة

قال جعفر : فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان سليمان أعطي فشكر
وان أيوب ابتلي فصبر ، وان يوسف ظلم فغفر ، وأنت من ذلك
النسل . قال جعفر : فتبسم وقال : أعد عليّ ، ثم قال : مثلك فليكن
زعيم القوم ، وقد عفوت عنكم ، ووهبت لكم خراج البصرة .

وقالوا : وقال جعفر للصادق حين طرب لقوله : أجل يا أبا عبد الله
ارتفع اليّ ، ثم جاء بطيب الغالية فجعل يصبّه على لحيته حتى
قطرت طيباً ، ثم قال له : في حفظ الله وكلاءته ! وخرج الصادق
وفي اثره الربيع الحاجب بجوائز حسنة وكسوة سنوية ٢٥٣

ولكن المنصور كان كلما ذكر الصادق تمضغ لحمه وأقسم ليقتلنه ،
حتى اذا تقيه وسبق المنصور يقذفه بالغضب ، وتناثر الغضب تحت قدمي
الامام ، فرغ المنصور من توعده ، ومضى الامام يتلطف له ويدلّه على
المكان الذي يجب أن يضع نفسه فيه ، وما يزال به حتى يحمد
نفسه ويميت باطله .

وفي سنة سبع وأربعين ومائة عزم المنصور أن يسيّر جعفرأ
معه الى العراق وهو راجع من الموسم فقالوا ان ذلك لم يتم له ٢٥٤ ،

(٢٥٣) نور الابصار ص ١٤٦ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٧ - مقاتل

الطالبيين ص ٣٥١ - نزهة الجليس ج ٢ ص ٣٦

(٢٥٤) المنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧

وقالوا ان الصادق استعفاه فلم يعفه ، فاستأذن في المقام بعده اياما
ليصلح أمورا مختلفة فأبى عليه وحمله معه ٢٥٥

وهكذا اجتمع الرجلان ثم افترقا بعد ان بان موضع كل منهما:
رجلٌ يسرع اليه الغضب ثم يتهافت حين يكسر صولجانه ، ورجل
يبقى كما هو عزيزا متماسكا كريم المقدم والذهاب ! فأبي الرجلين
- يا تُرى - كان خليقاً بأن يكون أمير المؤمنين ؟

رجل سياسي

ويقول الشهرستاني : ان جعفر بن محمد أقام بالمدينة مدة يفيد
الشيعة المنتمين اليه ، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم ، ثم دخل
الى العراق وأقام بها مدة ، ما تعرض للإمامة قط ولا نازع أحدا في
الخلافة ، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط ، ومن تعلّى
الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط ٢٥٦ . وهذا كلام قد بقي القاء
بعنه ظاهر جعفر ، ولكن الحقيقة تبين خطأه وثبت بطلانه .

ويقول كثير من الناس قولة الشهرستاني ، يقولون ان جعفر
ابن محمد شغل نفسه بالعبادة عن الرياسة ، يريدون بذلك انه كان
بعيدا عن السياسة ، ارتضى لنفسه حياة التعبد والعلم ، وترك المطامع

(٢٥٥) نزهة الجليس ج ٢ ص ٣٦

(٢٥٦) الملل والنحل ج ١ ص ٩٥

بل دفع أهله عنها ، وكثير من هؤلاء الذين كتبوا التاريخ جاوزوا
حقائق من سيرة جعفر كانت خليقة ألا يتجاوزوها ، ومنهم من لم
يكتب فيها شيئاً يذكر ، وربما لم يعرض لجعفر بعض المؤرخين الا
بذكر وفاته والسنة التي مات فيها .

ذلك لأن المؤرخين كانت تجري أقلامهم وراء الخلفاء تتحرك
بحركتهم وتسكن بسكونهم ، ولعل أهون شيء في الدولة في بعض
الأحوال يكون ذلك الخليفة الذي تجري وراءه الأقلام ، اما غيره
فيكون أعظم شأنًا وأشد بأسًا . ولعل رجلا يبني في هواده ويعمل
في تأمل وعلم يكون أحق بالانتباه اليه . وقد ثبت أن ذلك الذي
كانوا يقولون عنه انه شغل نفسه بالعبادة عن الرياسة قد أرسى
مبادئ مذهب وفصله تفاصيل ، ثم تبعه نصف المسلمين في الارض
الى اليوم ، ولم يزل من يؤرخ له يقول : انه ما تعرض للامامة ولا
نازع أحدا في الخلافة !

وليس من خطأ أبعد من أن يُظن أن جعفرا لم يشتغل بالسياسة ،
أو لم يكن له أثر في أمور الدولة ! إذ أي شيء كان يفعله جعفر في
سياسة دولة أكثر من العمل في الدفع والمنع في الثورات التي شبتت ؟
وأي دليل على عمله في السياسة أكثر من مصادرة ضيعته التي صادرها

قائد أبي جعفر المنصور؟ واي شيء كان يفعله جعفر في سياسة دولة
أعظم من تأصيل مذهب ديني ثم نشره بهمة لا تحمد وذكاء
لا ينطفىء؟ وأي نباهة لرجل سياسي أكثر من نباهة رجل يقصده
السلطان كل آن بالتهديد والأذى أو الملق والهدايا وهو ماض في
نشر ما هييء له من العلم والدين وبث سلطانهما في النفوس؟

انه لمن اروع الخطأ ان يُظن ان جعفر بن محمد كان معلما او
فقيها وحسب! فيظن لذلك انه كان بعيدا عن السياسة، وقد كان
الظن خطأ رائعا لأن تلاميذ جعفر بن محمد كانوا يفدون عليه من
الكوفة والبصرة والمدينة ومكة والحيرة وهمدان وقمّ وعسقلان ثم
يحملون عنه فقه اهل البيت، ويجاوزون به المدينة الى بلادهم واقطار
الأرض الأخرى فيدوي صوت جعفر بن محمد على لهوات اصحابه
وتلاميذه في صحون المساجد وابهاء الجوامع والمجامع. واذا صحّ ما
روي من ان جعفر كان يُجَبَى اليه بعض خراج الكوفة وبعض
خراج فارس فماذا وراء جباية الخراج من شركة سياسية في امور
الأرض والناس؟

فاذا لم يكن الا الاشتراك في الثورات ليدل به المرء على انه
يغمس يده في السياسة فان جعفر بن محمد أبدي رأيه فيمن يلي الامر

عندما شبت ثورة المدينة وثار محمد بن عبد الله المحض ، ثم أشرك
جعفر ولديه موسى وعبد الله ليعاونوا ابن عمهما في ثورته على المنصور.
وإن كان جعفر قد رأى ابن عمه محمدا مهزوما قتيلا فقد مدّه وأعانه
بأعز ما لديه : بولديه !

المجتمع الفاضل

عصية الملك

ان جعفر بن محمد وان كان قد عاش بادي العزلة والمسألة وكان يقول : السعيد من وجد نفسه في خلوة يشتغل بها عن الناس ^{٢٥٧} فانه مع قوله هذا لم يفض بصره عن معرفة شئون الدولة ولم يدع النظر فيما يجلب لها القوة والضعف . وكان من رأيه ان تقوم الدولة على العصبية بيني العم ، وقال في ذلك : « ما تثبت الدنيا الا على بني العم ، المتعاطفين بالبر ، المتعلقين بالادب ، المجتمعين على التناصر الحاضرين بالاتفاق ، الغائبين بلا اغتياب . بمثل هؤلاء تطول اعمار الدول وتدعم الممالك ، وما ذل قوم بعد العز حتى ضعفوا ، وما ضعفوا حتى تفرقوا ، وما تفرقوا حتى تباغضوا ، وما تباغضوا حتى تحاسدوا ، وما تحاسدوا حتى استأثر بعضهم على بعض ^{٢٥٨}

(٢٥٧) الفصول المهمة ص ٢٠٧

(٢٥٨) الحكمة الخالدة ص ١٤٧

أفيظن أحداً أن ذلك كان غير نقد مرير من جعفر للدولة
العباسية التي قتلت بني عمومته؟ وهل كان ذلك الا اندازا للعباسية
وتحذيرا لها من الزوال؟ ولا يقولنَّ أحدٌ أنها كانت عظماتٍ من
جعفر ووصايا ، فان كل مبدأ لا يكون الا كلاما وعظمات ووصايا
حتى يصير تطبيقه فيكون دولة وحكما .

وقد قال جعفر ذلك وهو يرى الدولة أمامه مهددة بالانهيار ،
ففي نفس الطريق الذي سارت فيه الأموية جاءت تحطو العباسية ،
ولم يتبدل الا الاسم والبلد الذي يطل منه رأس الحاكم : بغداد
بعد دمشق .

ولم يكن غريبا على جعفر ان يرى الدولة تزول قبل ان تزول
بقرون ، فان المقدمات أمامه ، والرجل الذي كان يقدر مصائر
الاشياء في دقة وصدق حتى عدّوه كأنه يعلم الغيب لا تذهب عنه
النتائج اذا افضت اليها المقدمات . فدعا في عصره الى دولة يقوم
عليها بنو العمّ الأقربون والبعداء ، تعطفهم آداب وتربطهم حقوق .
ولم تكن هذه نصائح وعظمات يُعْرَبُ فيها الفاعل في العبارة
والمفعول ، وانما كانت رأيا ، ولكن كان بين صوته وبين الأذان في
القصور أسوار وسدود !

فمن ذا الذي يقول ان هذه ليست سطورا في كتابة التاريخ؟

من تاريخ الأمة لا يكتبه كله ملوكها ورؤساؤها وقوادها وجنودها ،
وانما يكتبه معهم كل انسان كان حيا معهم . وكلما علت قيمته في
الدولة كانت سطورہ ابلغ في تاريخها بنسبة ما أثر . وجعفر بن محمد
كان في تاريخ هذه الامة قلما كاتباً ، ورأياً ثاقباً ، وعالماً خطير العلم ،
وعاملاً له ابعد الاثر في حالها وصيرورتها .

وكثير من الحكام لا يعبرون بحياتهم واعمالهم الا عن
ذواتهم ، اما القليل منهم فيعبرون عن حياة الامة التي يحكمونها ،
وحياة الصادق - ولو لم يكن حاكماً - كانت تعبر عن حياة الأمة ،
وما زالت تعبر حتى اليوم - وان جهل كثير من الناس -

واذا لم يعتبر الحكام الا عن حياتهم هم انفسهم كان ذلك من
ان الحاكم المستبد يظن الحياة كلها حقوقاً له ، وحين يكون ظنه
كذلك تكون حياة الزهاد الأحياء من حوله كلها واجبات ثقيلة
عليهم ، وتتعد المسافة بين الاثنين ، وكذلك كان فرقاً ما بين
جعفر بن محمد وكثير من حكام زمانه : كل الحياة لهم حقوق ، وكل
الحياة على الصادق واجبات ، ولكنهم - وكل شيء حق لهم - عاشوا
في قلق واضطراب ، وعاش هو - حين اثقل على نفسه الفروض -
مطمئناً مجدوداً سعيداً .

العزلة والاختلاط

ولم تكن العزلة التي ظنَّ جعفر يدعو إليها الا انقطاعا الى الله ،
وافراداً له بالعبودية ، حتى لا يذل الناس لغيره ، وليست العزلة في
نظره بالعزلة الجسدية التي ينقطع فيها الناس عن الناس ، وإنما كان
يرأها عملاً من أعمال القلب لا عمل الظاهر ، وقد يحضر قلبُ المرء
وهو بين الناس وفي غمرة ضجيجهم ، ولا يحضر وهو في عزلة عنهم
والليل مخيم عليه !

ورأى جعفر من معنى الانقطاع الى الله ان يرد اليه المرء كل
ما يصيبه ، ويرضى به دون أن يفرع الى احد غير الله او يستخط على
ما اصابه ، وقد سئل جعفر عن معنى الانقطاع الى الله فقال « ان
تعلم ان ما حكم عليك به من شيء فانه في ذلك محسنٌ اليك ، وهو
بك أرفق وعليك أشفق » فاذا تأصل هذا الخلق في الناس نزل
المتكبر عن كبره لأنه لا أحد يقصده ، وارتفع الذليل عن ذله لأنه
لا يرجو غير الله . وقد يذهب الظن بالناس الى أنَّ تحصُّنهم
بالرضا يبيتهم على المذلة ويعودهم الهوان ، ولكن السلطان يُسقط
في يده حين لا يجد على بابه رقاباً خاضعة للطامعين !

وهكذا اراد جعفر ان يشور بالناس ، وكانت المطامع قد عضتهم
فشرها الى الدنيا ، ولم يرض بما قسم له غني ولا فقير ، فانبرى

الصادق يحارب ذلك كله في النفوس بما يحدث عن رسول الله وعن عليّ وعن نفسه ، وانبعث يدعو الى الطمأنينة والرضا فان الطمع في الدنيا ليس وراءه الا المذلة والهوان .

وربما كانت النظرة الى الحياة الدنيا تتغير لو ان العدالة والايمان كانا من خلق الحاكم فيها دائما ، ولكنها تصبح خسيصة في النفوس مهيبة في العيون حين يفرض الظلمة انفسهم حكاما معتمدين على اخس قوى الدنيا من المال والسلاح ، وهذه الظلمة القائمة التي تراها محيية على حياة الزهاد انما هي ظلمة موهومة تراها نفوسنا المظلمة ، ولكنها في داخل انفس الزهاد نور ساطع ، وهم اشعلوه لئلا يخوضوا متاهات الظلم وراء الحكام الظالمين .

ومن وراء هذا الفهم نهض جعفر يطمئن الفقراء والمساكين ويذكرهم بقول رسول الله : « يا معاشر المساكين ، طيبوا نفسا وأعطوا الله الرضا من قلوبكم يثبكم الله عز وجل على فقركم فان لم تفعلوا فلا ثواب لكم » ٢٥٩ ثم يذكرهم بما كان يقوله عليّ على منبره : لا يجد أحدكم طعم الايمان حتى يعلم ان ما اصابه لم يكن ليخطئه ، وما اخطاه لم يكن ليصيبه .

فاذا اعتزل الناس الناس بعض العزلة كان عليهم ان يعتزلوا

٢٥٩) الكشكول للبهائي ص ٣١٦

الولاية والحكام الظالمين أكثر العزلة أو كلها ، وليست السعادة في
 مجاورة السلطان والارتقاء عليه . وكثيرا ما دعا جعفر بن محمد الى
 ذلك وعمل له وجعل من نفسه قدوة فيه ، حتى ان تلميذه
 سفيان الثوري جاءه مرة فلما دخل عليه قال له : يا سفيان ، انك
 رجل يطلبك السلطان ، وأنا أتقي السلطان ، قم فاخرج - غير
 مطرود - فقال سفيان : حدثني حتى أسمع وأقوم ، فحدثه جعفر
 ثم قام ٢٦٠

وإذا كانت مجاورة السلطان الجائر حراما على الناس كانت على
 الفقهاء أحرم ، والفقهاء في رأي جعفر هم أمة الناس ، على شرط
 ألا يكون من شأنهم التزييد في طلب الدنيا ، فاذا حدث ان طلبوا
 الدنيا وزادوا على قدر الحاجة في حفظ الصحة على الجسد كان ذلك
 منهم افراطا واسرافا . وقد قال جعفر : الفقهاء امناء الرسل ما لم
 يأتوا أبواب السلاطين . ولم ينكر جعفر مع ذلك حق الامير الخير
 العادل من وجوب طاعته فقال : انه لا يستغني أهل بلد عن ثلاثة
 يُفزع اليهم في أمر دنياهم وآخرتهم : فقيه عالم ورع ، وامير خير
 مطاع ، وطبيب بصير ثقة ، فان عدموا ذلك كانوا همجا ٢٦١

(٢٦٠) صفة الصفوة ج ٣ ص ٩٥
 (٢٦١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢ - أعيان الشيعة ج ٤ القسم
 الثاني ص ١٨٧

نُظْمُ الاخلاق

ولم تكن الأخلاق عند جعفر نظماً جامدة محتومة ، ولكنها كانت في وفاق مع العقل والتفكير والتحول ، وما لم يقبل من هذه النظم تحولاً - لان الزمان كله مهماً تغيير يرتضيه - فتملك شهادة من الخلق نفسه بأنه صالح للبقاء . ولم تتخذ الأخلاق عنده قوالب تنصب فيها ثم لا يتبدل لها شكل ولون .

فالصبر والامتناع لم تكن عنده مؤدية الى الخضوع والمذلة ، فاذا أدت اليهما وجب خلعها ، ولكن لما كان الصبر دائماً مقروناً بالعمل في مشقة وجلد للخروج من مأزق الضيق فقد بقي الصبر في مفهوم جعفر خلقاً حياً يرفض أن يزول .

ولم يكن الصبر في الاسلام رضوخاً للمذلة قط ، وان ذلك خلقيق بأن يسمّى ذلّة لا صبراً ، ومن الدس الخطير للاسلام ان يقال ان هذا النوع من الذلة هو الذي سماه الاسلام صبراً .

وقد كان الصبر في مفهوم الامام الباقر أبي جعفر بن محمد - حتى في الأمور الخارجة عن الطاقة والسعي - رضا وطمأنينة ، وليس منضاضاً وكرها ومذلة ، وقد قالوا ان بعض اهل الباقر اشتكى مرضاً شديداً فجزع عليه الباقر ثم أخبر بموته فسرى عنه ، فقيّل له في ذلك ، فقال : ندعوا الله فيما نحب ، فاذا وقع ما نكره لم نخالف الله

ويرى جعفر ان تتأصل الأخلاق الفاضلة في الناس ويُسَهَّرَ عليها حتى تصبح كأنها موروثة لا مكسوبة ، فان الخلق الطيب المكسوب ما يلبث ان ينزلق عن مكانه بدفع من الخلق السييء . وجعفر يقول في ذلك : من تخلق بالخلق الجميل وله خلق سوء أصيل فتَحَلَّقَه لا محالة زائل ، وهو الى خلقه الأول آيل ، كطلاء الذهب على النحاس ينسحق وتظهر صفرته للناس ٢٦٣

وجعفر بن محمد بقوله هذا لا يقرر ان الكسب لا نفع له، ولكنه يحذّر ان تظهر للناس مظاهر هي كطلاء الذهب على النحاس ، اما ان يمزج الذهب بالنحاس ، وأما أن يكون ذهباً كله جوهرأ وطلاء فلم يضرب به الصادق مثلاً للخلق الذي ينزلق ثم يزول .

الفتوة

ولفظ الفتوة وان لم يجيء في الكتاب والسنة قد أطلق على مجموعة من الفضائل أخصها المروءة والشجاعة ، تُفَرِّدُ المتصف بها وتميِّزه ، وكان اقدم من تكلم فيها جعفر الصادق ٢٦٤ . وقد دعا الناس اليها لأنها كانت لقباً لجلده علي بن أبي طالب ولأهل بيته ،

(٢٦٢) عبون الاخبار ج ٣ ص ٥٧

(٢٦٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٤

(٢٦٤) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٦٤

وهي وان كانت أمراً فردياً لا وجود له حين ذلك في جماعة منظمة^{٢٦٥}
الا أن اجتماع الناس عليها يجمعهم في نظام واحد ويقرب بينهم
وان كانوا افراداً .

ويُظلم جعفر بن محمد لو اتَّهم بأنه بذلك يكتل الجماعات في
قلب الأمة في ظل نظام خاص ، ولكنه انما كان يدعو الامة كلها الى
ان يؤثر كل فرد فيها غيره، وأن تسود بين الناس مكارم الاخلاق .
وقد تكلم في الفتوة بعده من الأئمة الفضيل ثم الامام احمد ثم
سهل والجنيد ، ولهم في التعبير عنها الفاظ مختلفة، والمآل واحد^{٢٦٦} .

وكذلك لم يؤثر جعفر نفسه عن أحدٍ يستحق الاجلال مثله ،
ولم يرفع نفسه عن تلاميذه ، بل عرف لهم فضلهم ، ودفع الراغبين
في علمه اليهم ليأخذوا عنهم . وقد حدث عن عنوان البصري - وكان
شيخاً قد اتى عليه أربع وتسعون - قال : كنت أختلف الى مالك
ابن أنس سنين ، فلما قدم جعفر بن محمد الصادق كنت أختلف اليه ،
وأحييت ان أخذ عنه كما أخذت عن مالك ، فقال يوماً : اني رجل
مطلوب ، ومع ذلك لي ورود في كل ساعة من آناء الليل واطراف

(٢٦٥) الملامتية ص ٢٤

(٢٦٦) انظر مادة « فتى » في القاموس

النهار ، فلا تشغلني عن وردي ، وخذ عن مالك ، واختلف اليه
كما كنت تختلف . قال عنوان : فاغتمت من ذلك وخرجت من
عنده وقلت في نفسي : لو تفرّس لي خيرا لما زجرني عن الاختلاف
اليه والأخذ عنه ! فدخلتُ مسجد رسول الله وسلمت عليه ثم
رجعت من الغد الى الروضة وصليت فيها ركعتين ، وقلت : أسألك
يا رب أن تعطف عليّ قلب جعفر وترزقني من علمه ما أهتدي به
الى الصراط المستقيم ، ورجعت الى داري مغتما ، ولم أختلف الى
مالك بن أنس لما أشربَ قلبي من حب جعفر ، فما خرجت من
داري الا الى الصلاة المكتوبة ، حتى عيل صبري .

قال عنوان : فلما ضاق صدري تردّيت وقصدت جعفرا ، فلما
حضرت داره ، وكنت عنده ، وسلمت ، أجلسني ، فجلست ،
فأطرق مليا ثم رفع رأسه فقال : أبو من أنت ؟ قلت : أبو عبدالله ،
قال : ثبت الله كنيتهك ووقفك يا أبا عبد الله ، ما مسألتك ؟ قال
عنوان : فقلت في نفسي : لو لم يكن لي من زيارته والتسليم عليه غير
هذا الدعاء لكان كثيرا ، ثم رفع رأسه فقال : ما مسألتك ؟
قلت : سألت الله ان يعطف عليّ قلبك ويرزقني من علمك وارجو
ان يكون الله قد أجابني ، فقال : يا عبد الله ، ليس العلم بالتعلم ، وانما
هو نور يقع على قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه ، فان

أردت العلم فاطلب اولاً في نفسك حقيقة العبودية ٢٦٧ واطلب العلم باستعماله واستفهم الله يفهمك .

قال عنوان : فقلت : أيها الشريف ، فقال جعفر : قل : يا أبا عبد الله ، قلت يا أبا عبد الله ، ما حقيقة العبودية ؟ قال : ثلاثة اشياء : ألا يرى العبد لنفسه - فيما خوّله الله - ملكاً ، ولا يدبر لنفسه تدبيراً ، وان يشتغل بما امره الله تعالى وينتهي عما نهى . قال عنوان : فقلت : يا ابا عبد الله ، أوصني ، فقال :

أوصيك بتسعة اشياء ، فانها وصيتي لمن يريد الطريق الى الله تعالى ، والله أسأل ان يوفقك :

ثلاثة في رياضة النفس ، وثلاثة في الحِلْم ، وثلاثة في العلم : فأما اللواتي في الرياضة فإياك ان تأكل ما لا تستهيه فانه يورث الحماسة والبله ، ولا تأكل الا عند الجوع ، واذا اكلت فكل حلالاً ، ثم ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه فان كان ولا بدّ فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

فأما اللواتي هنّ في الحِلْم فمن قال لك ان قلت واحدة سمعت

(٢٦٧) انظر صلاة ابن العربي بفكرة الامام الصادق هذه - المنقول من كتاب الحماسة - مجلة السنايل السنة الثامنة ج ٣ س ١٩٥٣

عشرًا فقل له ان قلت عشرا لم تسمع واحدة . ومن شتمك فقل ان
كنت صادقاً فأسأل الله ان يغفر لي وان كنت كاذباً فأسأل الله
ان يغفر لك ، ومن توعدك فعده بالنصيحة والدعاء .

وأما اللواتي في العلم فاسأل العلماء ما جهلت واياك ان تسألهم
تعنتاً وتجربة ، واياك ان تعمل برأيك ، وخذ بالاحتياط في جميع ما
تجد اليه سبيلاً ، واهرب من الفتياً هربك من الاسد، ولا تجعل
رقتك في الناس جسراً . قم عني يا ابا عبد الله فقد نصحت لك ،
ولا تقسد عليّ وردني فاني امرؤ ضنين بنفسي ، والسلام على من
اتبع الهدى ٢٦٨

وليس الغضب والرضا - وكل منهما في موضعه - الا صفات الفتي
المؤمن ، والحلال بين والحرام بين ، وليس لمؤمن ان يغضب حتى
يخرجه الغضب عن الحق ، وليس له ان يرضى حتى يدخله الرضا في
الباطل ، وانما هناك حاجر يجب الا يعدوه، وقد قال جعفر في ذلك:
المؤمن اذا غضب لم يخرجه غضب عن حق ، واذا رضي لم يدخله
رضاه في باطل ٢٦٩ . وهذه دعوة اكثر ما تكون للحكام دون

(٢٦٨) الكشكول للبهائي ص ٢٣٦

(٢٦٩) نور الابصار ص ١٤٨ - الفصول المهمة ص ٢١٠

المحكومين .

مبدأ الخطايا

ومبدأ المسألة ينبثق من العلم المحيط بهذا الانسان الكائن
ثم اليقين بأنه عرضة للخطأ ، وابن آدم يذنب لان الخطأ مركب
غريزته ، وانما ينجو من ذلك بالعقل والعزم ، فاذا لم يُعْمَلِ المرء
عقله ويشحذ عزمه كان آثما ومضى هالكا . ويرى جعفر ان يلجأ
المذنب للاستغفار مسرعا فانما هي خطايا تطوق اعناق الرجال قبل
ان يخلقوا ، والهلاك كل الهلاك في الاصرار عليها ، وقيل : تأخير
التوبة اغترار ، وطول التسوية حيرة ، والاعتداء على الله هلكة ،
والاصرار على الذنب من مكر الله ، ولا يأمن مكر الله الا القوم
الخاسرون ٢٧٠

ومن رأي جعفر في قوله تعالى «انما التوبة على الله للذين يعملون
السوء بجهالة» ان كل ذنب عمله العبد وان كان عالما فهو جاهل
حين خاطر بنفسه في معصية ربه ، واستدل بقوله تعالى فيما حكاه
يوسف لاختوته «هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه اذ انتم جاهلون»
فنسبهم الى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله ٢٧١ .

(٢٧٠) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٣٢ - الفصول المهمة ص ٢١٠

(٢٧١) الكشكول للبيهقي عن الطبرسي ص ٣٩ وهو مروى ايضا عن

ابن عباس وعطاء ومجاهد وقتادة

وقد أوجب جعفر بهذا الرأي ان ينازع المرء نفسه حتى ينتزِعها
من الهوى ، وفي الانسان القوة التي تحطم الشر في نفسه كما يحطمه
بيده من حوله ، وهي قوّة العقل ، التي هي سلاح لقهر المعصية
واذلال الشهوات .

ولم يرد جعفر ان يغفر للناس ان يذنبوا ويرتكبوا الآثام بحجة
انهم يخطئون غريزةً ، ولكنه كان دائب الدعوة للبعد عن الآثام ،
وقد قال : من اراد عزا بلا عشيرة وهيبسة بلا سلطان فليخرج من
ذل المعصية الى عز الطاعة ٢٧٢ . وهذه دعوة صارخة من الصادق
لرفض الاستعباد كله : استعباد العباد .

الناس وأزمانهم

وقد وهب جعفر بن محمد ذكاء بارعا ، ولم يدع التجارب تمرّ
به دون ان يعرف منها جديدا . وكان يرى الناس تسوء اخلاقهم
ويجشعون حين تغلو الاسعار ويُتسركون لهواهم ، ثم يرى الناس قد
صفت اخلاقهم ومات جشعهم حين ترخص الاسعار ، وقد قيل :
ما بال الناس في الغلاء يزداد جوعهم بخلاف العادة في الرخص ؟
فقال جعفر : لأنهم خلقوا من الارض وهم بنوها ، فاذا اقحطت

(٢٧٢) اسعاف الراغبين ص ٢٢٨

أفحطوا واذا أخصبت أخصبوا ٢٧٣ .

ولم يكن هذا من جعفر تحليلا للواقع ووقوفا عند التحليل بغير أن يفرض الدواء، ولكنه جعله عظة ليرفع الناس في أزمئتهم جميعها عن أن يكونوا كالأرض - التي هم بنوها - قحطا وخصبا، من أي طريق جاء وعلى أي صورة ارتسم . ولم يفت جعفرا أن يعبر بتعبيره القديم عن نظرية اليوم، تلك التي تقول: ان الانتاج هو أساس الاقتصاد وحياته، ولا تخصب الأرض الا ويكثر الانتاج، كما أنها لا تقحط الا وهو يقل ويذوب .

ولم يفرض جعفر عقوبة للمغالين بالاسعار لأنه لم يكن على رأس الدولة، ويكفيه أنه رفض ربحا كبيرا جاء به وكلاؤه، وجسده يزيد زيادة فاحشة فردّه عليهم، ولم يعالج أمر الاسعار في عنف، ولكنه عالجها من طريق تهذيب الأخلاق ليكون أمجح وأدوم .

وان قيمة العمل في السفر بالتجارة من الحجاز الى العراق أو الشام لم تكن في نظره كافية لأن يعود وكلاؤه بالربح الذي كان غبنا للمشتريين، ولم ير من حق وكلائه الا ينظروا الى منفعة الشاري فن حقه ألا يُغبن، وليست الحاجة الملحة الى السلع بموجبة عنده أن تقوم سببا للغبن، ولا أن تكون السلعة من يد رجل يقده

(٢٧٣) حياة الحيوان ج ٢ ص ١٠٤

الناس سببا لغبنهم ، ولذلك كله رفض جعفر أن يأخذ من وكلائه ما ربحوه ، وهو حقه وحده ، وردّه عليهم ليحملوا إثمه ويؤءوا بذنبه ، وإذا كان المشترون قد غالوا في الثمن - لأن البيع كان في سلعة جعفر بن محمد - فهو عنده أغبن الغبن وأشين الشين .

•

وقد قطع جعفر بأنه لا صلاح للناس ما لم يستحيوا من العيب أو يتوبوا من الذنب ، فإذا لم يكن هذا الانتباه صادرا عن القلب فإنه لا يلبث أن يعود ، وقد قال جعفر : من لم يستح من العيب ويرعو عند المشيب ويخش الله بظهر الغيب فلا خير فيه .

وانها ليست حكما وعظما ، ولكنه خلق أمة ونظام دولة ، كان يشرب به الامام ، فكما تجب العدالة من الحاكم تجب الطاعة والالتقياد من المحكوم .

وحدة الامة

وعادة الناس في كل زمان ومكان ان يثيروا الخلاف وينفذوا اليه من ثقب الابر ، وليس يترك الناس خلق الأثرة في الرؤساء حتى يثيروه فتسيطر عليه اهواؤهم وتضرى غرائزهم . ولم يترك الناس الامام الصادق دون أن يحشوه عليه ويدفعوه اليه ، ولكنه كان حصنا ركيننا لم يمكن لهم لينفذوا ، ولم يرض أن يختلفوا ، وقد

سئل عما شجر بين أصحاب رسول الله في الزمان الأول فقال: أقول ما قال الله: « علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ». ولم يكن الخلاف وحده هو المحرّم عند جعفر ، ولكنه حرّم كلّ سب له ، وكان يرى النقد أهم أسبابه ، ويعده عداوة^{٢٧٤} ، ولقد تنصل من ابداء رأيه فيما حدث بين الصحابة لئلا يجرّ الناس الى الخلاف كما تنصل من قبله ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ثم تنصل زين العابدين والباقر .

ويذهب جعفر بن محمد الى أن تتأكف طوائف الأمة وتتراحم : المسلمون وأهل ذمتهم ، ويدخل عبدة النار وأمثالهم في أهل الذمة من أهل الكتاب ، وقد استند في ذلك الى ما رواه عبد الرحمن بن عوف لعمر بن الخطاب ، فقد روي عنه عن أبيه قال : ذكّر لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قوم يعبدون النار ليسوا يهودا ولا نصارى ولا اهل كتاب ، فقال عمر : ما ادري ما اصنع بهؤلاء ! فقام عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - فقال : أشهد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب »^{٢٧٥}

(٢٧٤) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٥

(٢٧٥) الخراج لابي يوسف ص ١٣٠ - تيسير الوصول ج ١ ص ٢٣٥

ولم يرَرض جعفر أن يتفاضل الأفراد في الامة الاسلامية الواحدة
 بأجناسهم وأصولهم ، اذ الاسلام يمحو هذا التفاضل ، ولا فضل لعربي
 على عجمي الا بالتقوى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة
 الوداع . ولقد كان يلزم جعفرا رجلٌ من أهل السواد ، ويقعد عنده
 طويلا ، فتفقده يوما فلم يجده فسأل عنه الناس ، فقال له رجل
 منهم : انه نبطي ! - يريد بذلك ان يضع منه ويباعد بين جعفر
 وبينه - فقال جعفر - يردّ عليه - : اصل الرجل عقله ، وحسبه
 دينه ، وكرمه تقواه ، والناس في آدم مستوون ٢٧٦

صلاح المجتمع

ونظر جعفر الى هذا الانسان ، هذا الكائن الاجتماعي ، فرآه
 لا يستطيع العزلة والانفراد وحده ، فأخذ ينظم علاقاته بعضها ببعض :
 علاقاته بأهله وبجيرانه وبقومه ، ونظر في كل النواحي وسلك كل
 الطرق : ثقافة وعلمًا وخلقًا واقتصادًا واجتماعًا .

ولما كانت الأسرة وحدة المجتمع فقد أوجب جعفر على الآباء
 اختيار الامهات واختيار الاسماء والمبالغة في التأديب ، وكان على
 الأبناء الطاعة والشكر ، وعلى الاخوة التناصف والتراحم ونفي الحسد ،

(٢٧٦) صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٦ - الفصول المهمة ص ٢٠٦ - مطالب

السؤال ص ٥٨

فاذا لم تجتمع الأسرة على ذلك تعرضت لدخول الوهن وشماتة
الاعداء ٢٧٧

ورأى جعفر ان يتوَادَّ الناس وان يهينوا المال بينهم فلا يترابوا
به لئلا يمانعوا المعروف بينهم ، ورأى ان يسرع المسئول في معونة
السائل مخافة ألا يصبح للعطاء موقع اذا أبطأ ، ومخافة ان يستغني
السائل عما طلب . وجعفر يقول في ذلك : ان الحاجة تعرض
للرجل قبلي فأبادر بقضائها مخافة أن يستغني عنها أو تأتية وقد
استبطأها فلا يكون لها عنده موقع ٢٧٨ . وكان لا يرى منع الحاجة
عن العدو فلعلها تجعل منه صديقا ، فكان يقول : اني لأسارع الى
حاجة عدوي خوفا أن أردّه فيستغني عني ٢٧٩

واليد الدائمة التي لا تقطع احسانها كانت عند الصادق أحب
اليه من اليد التي تعطي ثم تمنع ، وهو يقول في ذلك : ما من شيء
أحب الي من رجل سلفت مني اليه يد أتبعته أختها وأحسن
ربها له ، لأني رأيت منع الاوخر يقطع لسان شكر الأوائل ٢٨٠ .
وكذلك رأى جعفر أن المعروف لا يتم الا بثلاثة أمور :

(٢٧٧) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ١٨٨

(٢٧٨) عيون الاخبار ج ٣ ص ١٧٥

(٢٧٩) أعيان الشيعة ج ٤ القسم الثاني ص ٢٠٣

(٢٨٠) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٣ - مجمع البيان ج ٢ ص ٣٧٧

أحدها أن يعجّل به حتى لا تفوت الحاجة إليه ، وأن يُصغّر
ويستهان به لئلا يكبر ، وأن يُسْتَر حتى لا يفضح الطالب ويضيع
ثوابُ المعطي ٢٨١

وان النار والعداوة والفقير والمرض أربعة أشياء القليل منها كثير
عند جعفر ٢٨٢ . فكما تجب مكافحة النار مهما صغرت لئلا تكبر
فتلتهم ما نالته ألسنتها وجبت مكافحة العداوة و خلع أصولها مهما
كانت صغيرة البذرة لئلا تخرج منها جذوع ثم فروع وأغصان ، اما
الفقير والمرض فيجب اجتناب اصولهما ، وعلى من تكفل بأمور
الناس أن يبحث هذه الأصول ، وفي الاسلام احكام كافية لتحقيق
الشفاء من كل هذا الداء .

وإذا لم تشهر الأمم الحرب على عيوبها ونقائصها هلكت :
والأمراء يهلكون بالجور ، والعرب بالعصية ، والدهاقين بالكبر ،
والتجار بالخيانة ، وجمهور الناس بالجهل ، والفقهاء بالحسد ٢٨٣

الربا

وليس الربا بين الناس عاملا على محاربة الفقر ، ولا دافعا

(٢٨١) الفصول المهمة ص ٢٠٦ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٥

(٢٨٢) نور الابصار ص ١٤٧

(٢٨٣) أعيان الشيعة ج ٤ ق ٢ ص ٢٠٤

لرواج التجارة ونمو الأموال، وإنما هو ماحق لها، ماحق للأخلاق،
مُرَبِّ للفقر والخراب، وليس ذلك رأي جعفر وحده، ولكنه رأي
الاسلام، وإنما أكثر جعفر من القول فيه ليرد الناس الى الرشد
والصواب، وقد سئل: لم حرم الله الربا؟ فقال: لئلا يتماع الناس
المعروف. ولقد غلظ جعفر بن محمد عقوبة آكل الربا ورأى قتله
وذلك حيث يقول: آكل الربا يؤدّب بعد البينة فان عاد أدّب
وان عاد قتل ٢٨٤

ولم يغفل الاسلام قطّ عن محاولات اعدائه في كل زمان
ومكان ان يُغري اهله بالمال ويُدفعوا الى المراباة حتى لا يقعوا في
احابيل السوء، ولم يحرم الاسلام الربا بين أهله أو بينهم وبين الاقوام
ألا ليظل المال عبدا حقيرا، ولا يكون ابدا سيدا مطاعا، وقد
تحققت حجة الاسلام في الربا حين وقع أهله عبيد المال فاضاعوا كل
شيء من حيث لا يستطيعون تحطيم صنميه المعبود.

ومن ثم دعا جعفر بن محمد الى المعروف واكثر من الدعوة اليه
وكان من قوله: المعروف زكاة النعم، والشفاعة زكاة الجاه، والعلل
زكاة الابدان، والعفو زكاة الظفر، وما ادّيت زكاته فهو مأمون

(٢٨٤) صفة الصفة ج ٢ ص ٩٥ - مجمع البيان ج ٢ ص ٣٩٢

الصدقة والجوار

وجعل جعفر بن محمد للصدقة بين الناس شروطا ، من كانت فيه كان خليقا أن ينسب إليها ، ومن لم تكن فيه لم يكن صديقا ، وتلك : أن تكون فرحة الصديق فرحةً لصديقه وزينا ، وألا يجعل سريره له غير ما يعلن ، وألا يكون المال بينهما سببا للتغيير والتنكر ، وأن يكون كل منهما أهلا لجميع المودة . ثم اذا حلت بأحدهما مصيبة ونكبة لم يُسلمه صاحبه بل يدفع عنه ويحميه .

ومنذ اول أيام الصدقة والمصاحبة يجب ان تلزم هذه الشروط ، ففى اختار الصديق صديقه ولزمه أياما لزم الحقوق ووجبت ، ومتى سارت الأيام ازدادت الشروط لزوما والحقوق وجوبا ، وانتقلت الصدقة الى قرابة لها شروطها ولها حقوقها ، وقد رأى جعفر بن محمد صحبة عشرين يوما بين صديقين قرابة بينهما ، كما رأى أن يلين الصديق لصديقه اذا جفا فان من يصفو ويدوم صفاؤه قليل ٢٨٦

وامتد بصر جعفر ليجعل المودة وحسن الصلة خلقا لبيوت الناس وعادة ، ولم يصير أحبَّ الى نفسه من أن تنتقل الصورة التي

(٢٨٥) أعيان الشيعة ج ٤ ق ٢ ص ٢٠٢

(٢٨٦) نور الابصار ص ١٤٧ - الفصول المهمة ص ٢١٠ - فى الصدقة والصديق ص ٨ ، ١٠

يراها في بيته من الحب والطاعة والأدب الى بيوت الناس جميعا
فتنظمها في سلكها وتصبح الأمة الاسلامية بيتنا واحدا وقلبا واحدا.
ولم يصر حسن الجوار والصدقة عند جعفر خلقا يزدان به الفرد
ويفضل به غيره ، ولكنه صار عنده خلقا اجتماعيا ، في قدرته أن
يخلق مجتمعا متعاطفا فاضلا تعمم به الدور ويفيض الرزق ويكثر
الولد . وما لم يتعاطف الناس جيرانا وأصدقاء خربت دورهم وانقطع
عنهم الرزق وقل العدد . وكثيرا ما كان جعفر يردد قوله : حسن
الجوار عمارة للدار . ومن قبله قال ابوه الباقر لأصحابه : أيدِ خُلْ
أحدكم يده في كم صاحبه فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير ؟
قالوا : لا ، قال : فلستم اذن باخوان ! ٢٨٧

وآمن جعفر بهذه العقيدة فجعل يسبر اصدقاءه واحببائه كما
كان يبراهله وذوي قرابته ، وآمن بعقيدته هذه يوم كان ناشئا
وحين صار اماما ، وقد جعل أصحابه منه بمنزلة الكبير بمنزلة
الوالد ، والمساوي بمنزلة الاخ ، والصغير بمنزلة الولد ، كل منهم في
طبقتة . وظل هذا خلقه أبد دهره ، وقد حدثوا انه لما مات المفضل
ابن عمر احد تلاميذه وبلغه خبر موته قال : رحمه الله ! كان الوالد
بعد الوالد . ثم حدثوا أنه لما مات أبان بن تغلب وكان تلميذا له

(٢٨٧) عيون الاخبار ج ٣ ص ٢٣ - في الصداقة والصديق ص ١١

كذلك قال : أما والله لقد أوجع قلبي موت أبان ! ٢٨٨
ولقد سيطر حب الخير على جعفر فلم يعنف على احد ، وخلص
الى جو يتأني فيه ويتبصر ، ويوجز ولا يسترسل . وبينما كانت
النار قد اندلعت في اقطار الشرق فالتهمت الامويين ، ودب الخلاف
بين بني علي وبني العباس ، بل بين الناس جميعا ، واخذت تعظم كل يوم ،
وكانت المدينة تغلي وتسكاد تتميز من الغيظ - بينما كان كل ذلك
يشمل الناس والبلدان كان جعفر يلم صفوف اهله وتلاميذه ويدعو
للخير فترنو اليه الابصار من كل الآفاق .

وقد كان جعفر يبدو مغضيا بغض من طرفه ، ولكنه كان يدرك
ما يصير اليه حال الناس اكثر مما يدركون ، وانما يدعهم ويمضي لما
هو بسبيله من السيادة بالعلم ٢٨٩ والزهد والفضل والمروءة وكل
خصال الخير .

وصايا الامام

وفي السنة الثامنة والاربعين بعد المائة بلغ جعفر الصادق الثامنة
والستين من عمره ، فلما جاء شوال من هذه السنة خفت المنية الى الامام
بعد ان خلف خمسة ذكور او سبعة وبنثا واحدة اسمها ام فروة ٢٩٠

(٢٨٨) محمد بن الحنفية ص ٩٦

(٢٨٩) عقيدة الشيعة ص ١٢٩

(٢٩٠) الفصول المهمة ص ٢١٢ - صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٥

منهم محمد واسماعيل وعبد الله وموسى واسحق وعلي ٢٩١ اما اسماعيل فكان قبض قبيل ابيه ، واما موسى الكاظم فكان الذي اوصى اليه بوصايا من الاخلاق بعضها لذات نفسه وبعضها لصلاته بالناس ، ولم يترك موسى الكاظم واحدة من هذه الوصايا الا عمل بها طول حياته ، وكان الامام بعد ابيه .

ثم اوصى جعفر تلميذه سفيان بن خصال من المروءة ، وأمره بحفظها فحفظها ٢٩٢ ، ثم اوصى عبد الله بن جندب ومحمد بن النعمان الاحول وعنواناً البصري ، و اوصى كل من حضر وفاته من اهل بيته رجالا ونساء واحراراً وعبيداً باقامة الصلاة .

ثم اوصى جعفر ليحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن لما حضرته الوفاة ، والى حميدة البربرية ام موسى ، والى ام ولدٍ اخرى فكان يحيى يبكي امرت تركاته والصغار من ولده ٢٩٣ . ولذا حدث يحيى عن جعفر قال : حدثني حبيبي جعفر بن محمد .

وتوفي الصادق وابنه موسى في العشرين ٢٩٤ وكان المنصور في السنة العاشرة من حكمه ٢٩٥

(٢٩١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٨٧

(٢٩٢) أعيان الشيعة ج ٤ ق ٢ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

(٢٩٣) مقاتل الطالبين ص ٤٦٤

(٢٩٤) صفة الصفوة ج ٢ ص ١٠٤

(٢٩٥) عقيدة الشيعة ص ١٤٨

ثم دُفن الصادق عليه السلام بالبقيع في قبر دفن فيه أبوه الباقر
وجده زين العابدين ودفن فيه الحسن بن عليّ . فله درّه من قبر
يَشْرُفُ على كل دار تمتلئ بالحياة والاحياء وتفخر بالبطولة
والابطال .

Faint, illegible handwriting at the top of the page, possibly bleed-through from the reverse side.

مراجع الكتاب

- (١) ألف با للبلوي القاهرة
- (٢) أدب الجاحظ » للسندوني
- (٣) إسعاف الراغبين » لمحمد الصبّان
- (٤) أصول الفقه » للخضري
- (٥) الاعتصام » لأبي اسحق اللخمي م ١٩١٣
- (٦) الأغاني » لأبي الفرج
- (٧) الاحاد في الاسلام » لبدوي
- (٨) الامام الصادق للمظفري العراق
- (٩) الامام الصادق ملهم الكيمياء للهاشمي حديث الشهر - العراق
- (١٠) الامام علي لمجذ رضا القاهرة
- (١١) الانصاف » للباقلاني
- (١٢) بحار الانوار لابن التقي العراق
- (١٣) البداية والنهاية القاهرة
- (١٤) تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي
- (١٥) » الخميس للديار بكري

- (١٦) » الطبري القاهرة
- (١٧) » اليعقوبي العراق
- (١٨) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية لبدوي القاهرة
- (١٩) التشريع الاسلامي للخضري »
- (٢٠) التطور والتجديد ... لشوقي ضيف »
- (٢١) التنبؤ بالغيب لتوفيق الطويل »
- (٢٢) توحيد المفضل والاهلبجة النجف
- (٢٣) تيسير الوصول للشيباني القاهرة
- (٢٤) جابر بن حيان وخلفاؤه لمحمد فياض سلسلة اقرأ »
- (٢٥) الجامع لأحكام القرآن للقرظي دار الكتب »
- (٢٦) جامع كرامات الأولياء للنهباني »
- (٢٧) الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلي »
- (٢٨) الحكمة الخالدة لبدوي »
- (٢٩) الحور العين لأحمد بن فارس »
- (٣٠) حياة الحيوان للدميري »
- (٣١) الاخبار الطوال للدينوري »
- (٣٢) الخراج لأبي يوسف »
- (٣٣) الخراج للقرشي »
- (٣٤) خزانة الأدب للبغدادلي »
- (٣٥) الخلق والاعتبار للجاحظ حلب
- (٣٦) الخليفة الزاهد للمؤلف بيروت

	ترجمة القاهرة	(٣٧) دائرة المعارف الاسلامية
م ١٨٨٣	»	(٣٨) دائرة المعارف للبستاني
هـ ١٣١٢	»	(٣٩) الدر المنثور لزينب فواز
	بيروت	(٤٠) رسالة البراهين على وجود الله لحنا دميان مخطوطة بيروت
	القاهرة	(٤١) الروض الباسم لأبي عبدالله اليامي
	»	(٤٢) زهر الآداب للحصري
	بيروت	(٤٣) زينب عقيلة بني هاشم للمؤلف
	بيروت	(٤٤) زين العابدين »
	القاهرة	(٤٥) شخصيات قلقة في الاسلام ابدوي
	»	(٤٦) سدرات الذهب لابن العماد
هـ ١٣١٥	استنبول	(٤٧) شرح المنار لعز الدين ابن الملك
	حيدر آبار الهند	(٤٨) صفة الصفوة لابن الجوزي
	القاهرة	(٤٩) طبقات الصوفية لأبي عبدالرحمن السلمي
	»	(٥٠) الطبقات الكبرى للشعراني
	»	(٥١) طريق المهجرتين لابن قيم الجوزية
	»	(٥٢) عجائب المخلوقات للقزويني
	»	(٥٣) عقيدة الشيعة ترجمة
	بيروت	(٥٤) أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين
	القاهرة	(٥٥) عيون الأخبار للدينوري
هـ ١٣١٠	»	(٥٦) غاية الاختصار للشريف تاج الدين
	الذخيف	(٥٧) فرق الشيعة للنوبختي

النجف	لابن الصباغ	(٥٨) الفصول المهمة
استنبول	لابن حيان	(٥٩) في الصداقة والصدق
القاهرة	لابن الأثير	(٦٠) الكامل
»	المبرد	(٦١) الكامل
ايران	للبنائي	(٦٢) الكشكول
حيدر آباد الهند	للعسقلاني	(٦٣) لسان الميزان
القاهرة		(٦٤) لوائح الانوار البهية للسفاري
صيدا - لبنان	للطبرسي	(٦٥) مجمع البيان
»	للاكليروس المسيحي	(٦٦) مجلة السنابل
سبهر ايران	للخطيب الهاشمي	(٦٧) محمد بن الحنفية
القاهرة	لابن الحاج	(٦٨) المدخل
»		(٦٩) مذكرات في تاريخ الفلسفة لعناني مخطوطة
النجف	لمحمد بن طلحة	(٧٠) مطالب السؤل
القاهرة	لابن قتيبة	(٧١) المعارف
»	لباقوت	(٧٢) معجم الادباء
»	»	(٧٣) معجم البلدان
»	لابي الفرج	(٧٤) مقاتل الطالبيين
»	لعلي عبد الواحد	(٧٥) الملامتية
» ١٢٦٣ هـ	لشهرستاني	(٧٦) الملل والنحل
دار الكتب القاهرة	لابي المحاسن	(٧٧) النجوم الزاهرة
القاهرة ١٢٩٣ هـ	للعباس الموسوي	(٧٨) نزهة الجليس

(٧٩) نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي لعلي حسن عبد القادر القاهرة

(٨٠) نقد العلم والعلماء لابن الجوزي القاهرة

» نور الابصار للشبلنجي

» وفيات الاعيان لابن خلكان

Handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page. The text is extremely faint and illegible.

الفهرس

تقديم ٣

الباب الأول : مودة الكرام ٧

مكارم خصمين ٧ ، أولاد أبي بكر ١١ ، أولاد
الفتيات ١٣ ، من أبي بكر ١٤ ، من علي ١٧ ، الوصي
والصديق ١٨ ، جعفر بن محمد ٢١ ، أهل البيت ٢٢ ،
وصية الباقر ٢٦ ، السماع للعلماء ٢٧ ، عكرمة ٢٨ ،
عطاء ٢٩ ، التجارة ٣٢ ، زينة الله ٣٥ ، المهابة والوقار ٣٨ ،
لقب الصادق ٣٩

الباب الثاني : العلم والادب ٤٣

تعليم الله ٤٣ ، بيت أبي طالب ٤٤ ، علوم الدنيا ٤٥ ،
الكيمياء ٤٦ ، حساب الفلك ٤٨ ، العلم بالحيوان ٥٠ ،
امكنة في الارض ٥٠ ، علوم الدين ٥٤ ، الحديث ٥٥ ،
الفصص ٦٠ ، العلم بالقرآن ٦٢ ، مسائل الفقه ٦٨ ، بين
الدين والدنيا ٦٨ ، الجفر ٦٩ ، الجامعة ٧٢ ، كتب
شتى ٧٢ ، علم الغيب ٧٥ ، أدب الصادق ٨٠ ، حرية

الأدب ٨١ ، السيد والكميت ٨١ ، صناعة الدعاء ٨٣ ،
اجابة الدعوة ٨٤

الباب الثالث : الرأي والدين ٨٦

القرآن ٨٦ ، الصانع الاول ٩٠ ، الرأي السابق ٩٣ ،
الكلام في القدر ٩٩ ، الدين والرأي ١٠١ ، الصادق
والنعمان ١٠٢ ، تأصيل مذهب ١٠٨ ، فقه المدينة ١١٠

الباب الرابع : ثورة المدينة ١١٢

المدينة والاطراف ١١٢ ، رأي الصادق ١١٦ ، النفس
الزكية ١٢١ ، بنو العباس ١٢٣ ، الصادق بالربذة ١٢٦ ،
قانون المصادر ١٢٩ ، استكبار المنصور ١٣١ ، اسف
الصادق ١٣٢ ، الصادق بالكوفة ١٣٣ ، رجل سياسي ١٣٦

الباب الخامس : المجتمع الفاضل ١٤٠

عصية الملك ١٤٠ ، العزلة والاختلاط ١٤٣ ، نظم
الاخلاق ١٤٦ ، الفتوة ١٤٧ ، مبدأ الخطايا ١٥٢ ، الناس
وازمانهم ١٥٣ ، وحدة الامة ١٥٥ ، صلاح المجتمع ١٥٧ ،
الربا ١٥٩ ، الصداقة والجوار ١٦١ ، وصايا الامام ١٦٣

مراجع الكتاب ١٦٦

الفهرس ١٧١

كتب للمؤلف

- (١) النكتة المصرية
- (٢) يوم وليلة خلافة ابن المعتز
- (٣) ابن المعتز علمه وادبه
- (٤) عبقرية ابي تمام
- (٥) « البحتري
- (٦) ابوطالب شيخ بني هاشم
- (٧) زينب عقيلة بني هاشم
- (٨) زين العابدين علي بن الحسين
- (٩) ملحمة الفالوجة
- (١٠) الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز
- (١١) فلسفة الزكاة عند المسلمين
- (١٢) جعفر بن محمد الامام الصادق

يصدر قريباً جداً

أسرار الخلود في الدين الاسلامي

وهي الرسالة الأولى من سلسلة « من الفكر الاسلامي »
للمؤلف وتصدرها تباعاً « دار الشرق الجديد » في بيروت .

T

S

Bach

♡

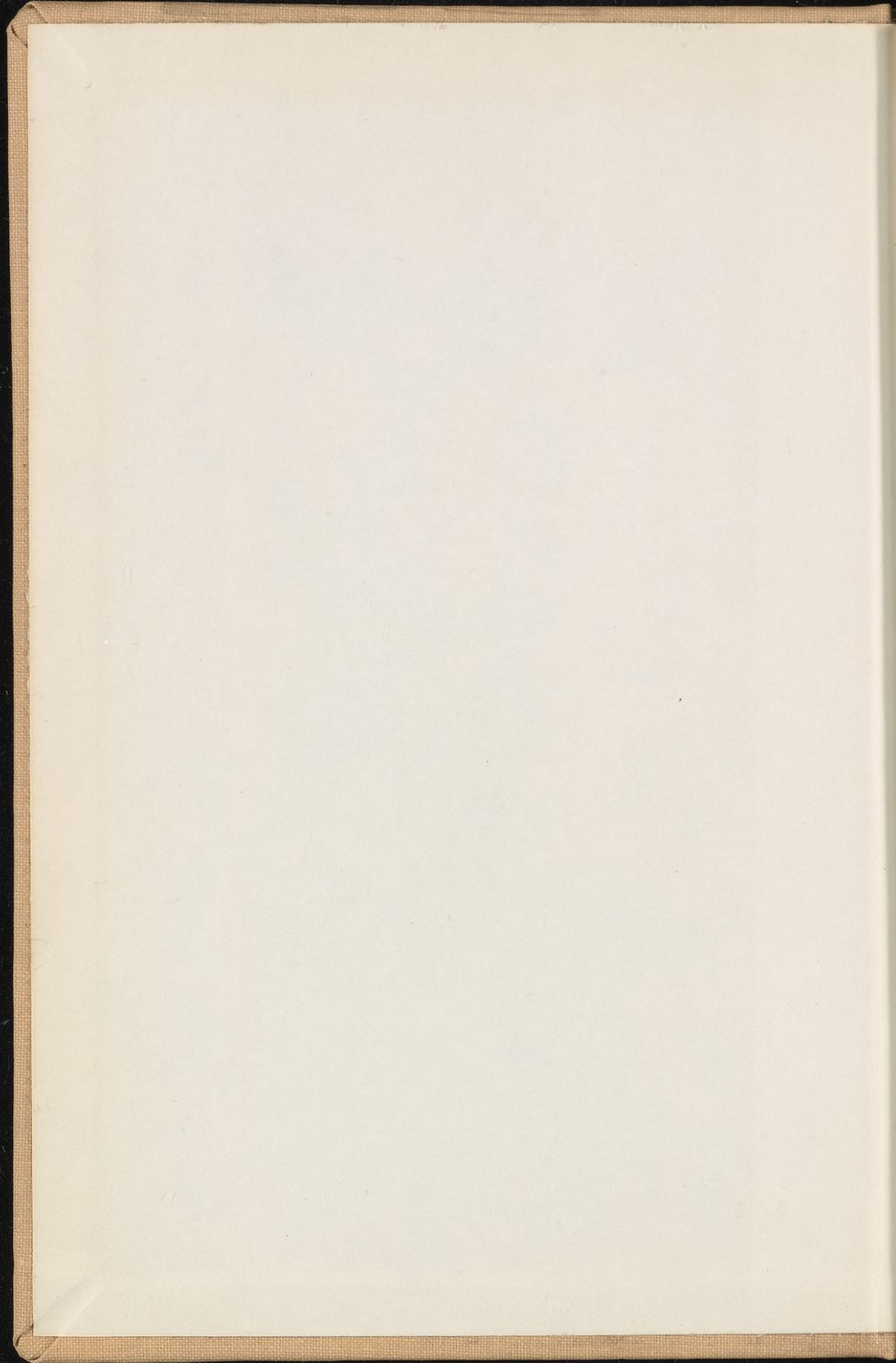
PB-31557-SB

5-19T

CC

6660

BB-31227-2B
2-121
30



NYU - BOBST



31142 02807 2364

BP80.J3 S3

Jafar ibn Muhammad al-Imam al-